الفصل الثاني:

المظاهر التطبيقية للإعجاز البلاغي في كتب دلائل النبوة

المبحث الأول: المفردة.

المبحث الثاني: التركيب.

المبحث الثالث: التصوير.

المبحث الرابع: التحسين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول : المفـــردة

هذا المبحث يدور حول المفردة، ومدى اهتمام علماء كتب دلائـــل النبـــوة بهـــا. والمقصود بـــ (المفردة) هي الكلمة سواء كانت حرف معنى أم اسماً أم فعلاً.

ويدلّنا المعجم على أن المفردة تلتقي مع الفَرْد والإفراد والمُفْرد والفردِيّة والانفـــراد، كما تدل على العدد الواحد، وهذا كله نقيض التثنية والجمع، قال تعـــالى:] رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا © خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ Z(١).

وبما أن النظم لا يتأتى في الكلمة المفردة، بل في وضعها من الكلام كلـــه، لـــذلك ستكون دراسة المفردة عند علماء كتب دلائل النبوة في نطاق النظم وليس بمعزل عنه.

إن الدقة في اختيار المفردة، ووضعها في موقعها الملائم، هو همُّ البلغاء العرب، ولعل ما يمثِّل ذلك ما عرفه شعراء الجاهلية عندما كانوا يُبدون الرأي في أشعار بعضهم، وقـــصة النابغة مع حسان بن ثابت ﷺ من الشواهد على ذلك، وامتدَّ هذا الاهتمام على مـــستوى الشعراء والعلماء في الفترات اللاحقة.

ولقد درس العلماء في كتب دلائل النبوة مواقع المفردات في النص القرآني، ومـــدى ملاءمتها لسياقها ومدلولاتها،((والنظر في مفردات النص الأدبي من أوجب مايجـــب علـــى مفسره ودارسه؛ لأنها مفتاح النص، وزمام ما فيه من دقيق المعاني وخفيّ الإشارات)) (٢)، ولذلك لابد من دراسة ما سطَّره العلماء في كتب دلائل النبوة حول المفردة.

ومن خلال التأمل في النصوص التي أوردها العلماء في كتب دلائل النبوة، وجـــدت بعضاً منها يهتم بالحروف وأدوات الربط، وبعضاً منها يهتم بمادة الكلمة المعجميـــة الـــتي

(١) سورة الأنبياء : آية : ٨٩ ، وينظر : المعجم الوسيط : ٢ / ٦٧٩ ــ ٦٨٠ (فرد) .
(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٢١٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحددها حروف الكلمة الأصلية، وبعضاً منها يهتم بهيئة الكلمة والمعنى المفاد من هذه الهيئـــة، وبناء على ذلك ستكون الدراسة في هذا المبحث على ثلاثة أقسام:

١ ـ الحروف .

٢ ـ مادة الكلمة .

٣ ـ هيئة الكلمة .

١ ـ الحروف:

تنقسم الحروف في اللغة العربية إلى حروف مبانٍ، وحروف معانٍ، فحروف المبـــاني: هي الأحرف الهجائية التي تبنى عليها الكلمة العربية. وأما حروف المعاني: فهي كلمـــات لا تدل على معنى في نفسها، وإنما تدل على معنى في غيرها (١). وقد وقف العلماء في كتـــب دلائل النبوة على هذين القسمين.

ولعل (الصَّوت) من أهم ما يجب الحديث عنـــه عند دراسة العلماء لحروف المباني؛ ذلك أن الصوت يزيد إلى معنى الكلمـــة دلالات جديدة، كمـــا أن الـــصوت الكلامـــي هو((أصغر وحدة قابلة للتبادل)) (٢)، إذ تَصوُّر اللغويين للصوت يحدده إمكان إزالة قطعـــة من سلسلة كلامية، وإحلال قطعة من سلسلة أخرى محلها، على أن يتوفر في القطعـــتين أن يحدث تبادلهما تغيير كلمة إلى كلمة أخرى (٣)، وهذا مما يتحقق في الحرف والحركة.

فأما اهتمام العلماء في كتب دلائل النبوة بالقيمة البلاغية للصوت فتظهر في إطـــار دراسة الزيدي لفصاحة القرآن، فقد تحدث عن أثر إبدال حرف مكان آخر في الكلمـــة، أو تغيير الحركة التي تدخل على الفعل المستقبل، وذلك عند بعض قبائل العرب، وجعل حديثه عنها أوَّل أقسام الفصاحة، يقول الزيدي:((فمن أقسام الفصاحة أن يكون الكلام مركباً من

(١) ينظر : النحو الوافي : عباس حسن : ١ / ١٣ ، ٦٦ ، دار المعارف ، مصر ، ط ٥ .

(٢) علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي : محمود السعران : ١٤٦ ، دار النهضة العربية ، بيروت .

(٣) ينظر : المرجع السابق : ١٤٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللغات الفاشية في العرب التي لم يسترذلها أحد منهم، نحو "عنعنة تميم" و "كشكشة ربيعة" وذلك أن قوماً من تميم تجعل الهمزة المفتوحة عيناً، وأنشد الخليل فيه:

* وحبها(١) موشكٌ عن يصدع الكَبِدا *

أراد: أن يصدع .

وقوم من ربيعة يقولون للمرأة: عليش وأليش وبش، يريدون: عليك وإليك وبك، فيجعلون الكاف شيناً، وينشدون:

فعيناش عيناها وجيدش جيدها

سوى أن عظم الساق منش دقيق (٢)

قال الخليل: من ترك عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، فهم الفصحاء.

ومن ذلك ما حكي عن قوم من العرب أنهم يكسرون النون التي تدخل على الفعل المستقبل فيقول: ونذهب، ونخرج ... فأصل الفصاحة أن يسلم الكلام من ذلك وأشباهه، وقد سلم كل القرآن من أوله إلى آخره، فهذا باب من الفصاحة)) (٣). ومن المقرر أنه لا يمكن دراسة لغة من لغات العرب دراسة علمية دقيقة ما لم تكن قائمة على وصف أصواتها وأنظمتها الصوتية (٤).

ويبدو من خلال حديث الزيدي عن هذه القضية أنه لا يرى هناك حاجة لتلك اللغات واللهجات؛ لعدم فصاحتها، وأنه لا علاقة تربط بين اللغات والقراءات القرآنية، ويدل على عدم وجود هذه العلاقة قول الزيدي: ((ولهذا قرأ أبو عمر " إن هذين

---

(١) جاء في الأصل [وجيهاً] والصواب [وحبها] والكلمة التي ذكرها الزيدي غير ملائمة للمعنى، وربما كانت زلة مطبعية، ينظر: كتاب العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي : ١ / ٩١ ، تحقيق : د.مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي ، دار الهلال .

(٢) يريد : فعيناك عيناها وجيدك جيدها سوى أن عظم الساق منك دقيق

البيت من (الطويل) ونسبه البغدادي إلى مجنون قيس، ينظر : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبدالقادر بن عمر البغدادي : ١١ / ٤٩٥ ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه : محمد نبيل طريفي، إشراف : إميل يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨ هـ.

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٩٧ ــ ٩٨ .

(٤) ينظر : علم اللغة : مقدمة للقارئ العربي : ٩٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لساحران "[1] و لم يتأوله على لغة من يجعل المنصوب للألف)) [2]، وإذا كان الزيـدي يعتقد ذلك فلماذا نزل القرآن على سبعة أحرف ؟ وقد قرَّر العلماء بأن المقـصود مـن الأحرف السبعة التي ورد الحديث بها، أنها سبع لغات من لغات العرب [3]، ثم إن ابـن جني وهو الباحث اللغوي المتخصص تناول ـــ في باب مستقل ـــ قضية اللهجات العربية الضعيفة سواء من جهة القياس أو من جهة الرواية، ورأى بأن يؤخذ بأوسع اللـهجتين رواية وأقواهما قياساً، وضرب أمثلة على هذه اللغات أو اللهجات بما عرف عند العرب من ظواهر لغوية بين قبائلهم كالعنعنة والكشكشة اللتين ذكرهما الزيدي في حديثه [4]، وفي نهاية الباب يقرِّر ابن جني بأنه ((كيف تصرفت الحال، فالناطق على قياس لغة مـن لغات العرب مصيب غير مخطئ، وإن كان غير ما جاء به خيراً منه)) [5].

وربما ظنَّ الزيدي عند إخراجه هذه اللغات من دائرة الفصاحة وقوع اختلاف بـين لغات العرب، وهذا الاختلاف قد يصل إلى أن يكون للمعنى الواحد لفظ مغاير في كلِّ لغة من تلك اللغات، وهذا غير وارد إطلاقاً؛ لأن الاختلاف بين هذه اللغات إذا وصـل إلى هذا الحدِّ، فإنها ستكون لغات مستقلة لا يجمعها اسم العربية.

وقد أشار الزيدي إلى ملمح مهم في آخر حديثه عن أقسام الفصاحة، وهو تـلاؤم الحروف، وما تُحدثه عند تلاؤمها من عذوبة وحلاوة، وعند انعدامه من تنافر، ويـبين الزيدي أنه كلما ظهرت الصنعة أكثر، كان الكلام أقرب إلى أن يكـون تعـسُّفاً، وإذا

---

(١) سورة طه : آية : ٦٣ ولفظ الآية : ﴿ **قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ** ﴾.

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٩٨ .

(٣) ينظر : صحيح مسلم بشرح النووي : يحيى بن شرف النووي : ٦ / ٩٩ ، دار إحياء التراث العربي ، بـيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ ، وسنن البيهقي الكبرى : أحمد بـن الحـسين البيهقـي : ٢ / ٣٨٥ ، تحقيـق : محمـد عبدالقادر عطا ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ، ١٤١٠هـ ، وفتح الباري : ٩ / ٢٤ .

(٤) ينظر : الخصائص : عثمان بن جني : ٢ / ١٠ ـــ ١١ ، تحقيق : محمد علي النجار، دار الكتب المصرية،ط٢.

(٥) المصدر السابق : ٢ / ١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حسن التلاؤم وحسن معه يسير الصنعة، أشرق تأليف الكلام ووضعه [1]، ويمثل علـــى هذا بقول الشاعر:

تمتع من شميم عَرَارِ نجـــد　　فما بعد العشية من عرار
ألا ياحبذا نفحات نجـــد　　وريَّا روضِـــه بعد القِطار
شهور ينقضين وما شعرنا　　بأنصـــاف لهن ولا سرار [2]

ويعلق الزيدي على هذه الأبيات بقوله: ((لما حصل التلاؤم حصل في النفس القبول التام مع قلة الصنعة فيه)) [3]، كما يُقرِّر الزيدي بأن تلاؤم الحروف موجود في القرآن من أوله إلى آخره، وأنَّ ما يحصل للمعاني من حسن اطراد إنما هو من تلاؤم الحـــروف، ويعُلّل هذا بقوله: ((لأن موضوع العبارة إنما هو للمعنى، فإذا لم يحسن المعـــنى كـــان بمنـــزلة تعليق الحُلي على المرأة الشوهاء)) [4]، ويسوق الزيدي شواهد قرآنيـــة علـــى ذلك، منها قولـــه تعالى: [o p q r s t u v w x y z { | ~ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ Z [5]، وقولـــــه تعالى: [4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A B C D F G H I K L M Z [6] إلى قوله: [ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ © بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ ´ µ ¶ ¸ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ Z [7]، ويعلـــــق

(١) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٤ ـــ ١١٦ .
(٢) الأبيات من (الوافر) ونُسبت إلى الصمة بن عبدالله القشيري، ينظر : المدهش : ابن الجـــوزي : ١ / ١٨٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٥هـــ ، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص : ٣ / ٢٥٠ .
(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٤ .
(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٧ .
(٥) سورة النمل : آية : ٦١ .
(٦) سورة غافر : آية : ١ ـــ ٣ .
(٧) سورة غافر : آية : ٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الزيدي على هذه الآيـات بقوله: ((فتأمل ـ رحمك الله ـ مواقع هـذه الألفـاظ، وحسن نظامها، وخفتها على السمع، وقبول النفس لها، واهتزازك لـسماعها، لـتعلم حقيقة ما ذكرناه)) (١).

وكأن الزيدي في حديثه السابق يشير إلى الانسجام والتلاؤم في مخـارج الحـروف، وذلك من حيث تلاؤم صفات هذه الحروف الناتجة عن المخارج، وهذا أمر متحقـق في إيقاع القرآن الكريم، فهي سهلة في النطق وخفيفة على السمع، سواء كانت مفـردات القرآن تصور مواقف ترغيب أو ترهيب.

وأكاد أجزم بأن الزيدي يجعل الذوق هو المناط الأوحد في الحكم بحسن المفـردة أو قبحها، دون النظر إلى قرب مخارج الحروف أو بعدها، وأظنه بهذا الحكم يكون صاحب الريادة في هذه القضية، فقد تخلى عن قاعدة قرب المخارج أو بعدها التي وضعها علماء اللغة قبله كابن جني وغيره، ولم يتبعه في هذا الحكم سوى ابن الأثير، وذلـك عنـدما أكَّـد هذا بقوله: ((إن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقـام بحسن ما يحسن من الألفـاظ وقبح ما يقبح)) (٢)، وهذا مما يؤكد بلا شك نظرة الزيدي الحسية في تلقـي المفردة الصوتية، وما يلازمها من بيان واضح للأثر النفسي، فالنفس البشرية بطبيعتها لا تميل إلى المتنافر.

ومع أن قضية التلاؤم بين الحروف جذورها قديمة، وتحدث عنها العلماء قبل الزيدي، إلا أنه لم يعتن بها عناية كبيرة، فقد تحدث عنها بصورة عامة، مع أنه وصف هذه القضية في بداية حديثه عنها بأنها عُمدة أقسام الفصاحة (٣)، فهو لم يُشر إلى طبيعـة حـروف الكلمة التي تتفق أو تختلف مع حروف الكلمة المجاورة، ولا إلى أثر الاقتراب أو الافتراق بين الحروف في المفردة الواحدة، ولم يذكر أمثلة على تنافر الحروف، إذ من الممكن سرد

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٨ .

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : ضياء الدين ابن الأثير : ١ / ٢٥٩ ، تحقيـق : د. أحمـد الحـوفي ود. بدوي طبانة ، دار الرفاعي، الرياض ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ .

(٣) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض الأمثلة والنظر في مخارج حروفها، وذكر بعض صفاتها كالهمس والجهر وغيرهـا، كما فعل الجاحظ وغيره (١)، كما لم يستفد الزيدي من نظرات الرماني، فهـو جـدير بالانتباه؛ لأنه درس هذه القضية في القرآن الكريم بشكل خاص، ودلَّنا علـى أسـباب سهولة المخارج فيه، كما وضَّح سبب التنافر في سياق الحروف (٢).

والجدير بالذكر أن التلاؤم والتناسب هما أساس فكرة البلاغة التي تصل بـالتعبير إلى درجة خاصة في أداء المعنى أداء متكاملاً جميلاً، مشتملةٍ على كل خصائـصه ومميزاتـه، ولذلك أفاد علماء البلاغة من الدراسات اللغوية، وخاصة حين يتعرضون لفصاحة اللفظ المفرد، وهم في ذلك ينقلون عن الخليل تارة، وعن ابن دريد وابن جني تارة أخرى (٣).

و لم يتوقف جهد الزيدي في بيان القيمة البلاغية للصوت عنـد حـدود الحـروف واختلافها، بل تجاوز ذلك إلى الحركات الملازمة للحروف، فقد قرَّر أن الـتلاؤم كمـا يكون في الحروف، فإنه يقع أيضاً في الحركات والسكنات، وفي ذلك يقول:((واعلم أن التلاؤم يكون بتلاؤم الحروف، وتلاؤم الحركـات والـسكنات)) (٤)، والـتلاؤم في الحركات والسكنات يتمثل عند الزيدي بالاعتدال في اسـتخدامها، يقـول:((وإنمـا حصلت لهذه الآيات العذوبة التامة؛ لما حصل لحروفها من التلاؤم، ولحركاتها وسكناتها من الاعتدال)) (٥)، ثم يبين الأثر الناتـج عن عدم الاعتدال في استخدامها فيقـول:((والحركات والسكنات لو لم تعتدل لم يتم حسن النظم؛ لأن كثرة الحركـات توجـب للكلام بعض الثقل، ألا ترى إلى ما روى أهل العروض في جنس البسيط:

---

(١) ينظر : البيان والتبيين : ١ / ٦٥ ــ ٦٩ ، وسرُّ صناعة الإعراب : عثمان بن جني : ١ / ٦٠ ، دراسة وتحقيـق: د. حسن هنداوي ، دار القلم ، دمشق ، ط ٢ ، ١٤١٣هـ.

(٢) ينظر : النكت في إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٩٤ ــ ٩٧ .

(٣) ينظر : أثر النحاة في البحث البلاغي : د. عبدالقادر حسين : ٢٤ ، دار غريب للطباعـة والنـشر والتوزيـع ، القاهرة ، ١٩٩٨ م .

(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٤ .

(٥) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وزَعَموا أنَّهُم لَقِيَهُم رَجُلٌ فأخذُوا مالَهُ وضَرَبُوا عُنُقَهْ (١)

كيف حصل الثقل لما كثرت حركاته؟ وكثرة السكنات توجب لنسج الكلام بعض الضعف والسخافة، ولهذا صار الكلام موزوناً باعتدال الحركات والسكنات، ويتكسر البيت بخروج الحركات أو السكنات عن الاعتدال)) (٢).

بَيْد أن الزيدي لم يدعم كلامه بالشواهد القرآنية وغير القرآنية في بيان ميزان الاعتدال الذي أشار إليه، ولعل هذا يعود إلى إدراكه تصديق ما ذكره بمجرد سماع الآيات القرآنية، فكل القرآن دليلٌ على صحة كلامه، إذ لا تثقل كلمة واحدة فيه على اللسان والأذن.

واكتفى الزيدي بذكر مثال واحد على الثقل الناتج من كثرة الحركات في المفردة الواحدة، وهذا البيت الذي استشهد به الزيدي لا أظن أن له ما يوافقه وزناً من شعر العرب، فقد ذكره العروضيون ليستوفوا به القسمة المنطقية العقلية لصور البحر البسيط، كما فعلوا في غيره (٣)، وإنما استشهد به الزيدي هنا ليُدلِّل على صحة كلامه من أن الحركات والسكنات لو لم تعتدل في الكلام لحصل الثقل، وقد لاحظنا كيف حصل الثقل في هذا البيت لما كثرت الحركات.

ثم إن الزيدي أشار في مسألة الاعتدال عند استخدام الحركات والسكنات إلى ملمح لطيف، وهو ارتباط الحركات بالنظم، وكأنه بذلك يريد أن يدلنا على وجود علاقة تنعقد بين معنى الكلمة والحركة الصوتية، وأن هناك صلة معنوية بين حركة الحرف في الكلمة، وقوة المعنى أو ضعفه.

---

(١) البيت من (البسيط)ولم أتمكن من معرفة قائله، وقد ورد عند ابن جني في كتابه : العروض : ٧٥ ، تحقيق : د.أحمد فوزي الهيب ، دار القلم ، الكويت ، ط ١ ، ١٤٠٧ هـ ، كما ذكره الزمخشري في كتابه : القسطاس في علم العروض : ٨٠ ، تحقيق : فخر الدين قباوة ، مكتبة المعارف ، بيروت، ط ٢ ، ١٤١٠ هـ ، وذكره السكاكي في : مفتاح العلوم : ٥٣٥ ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ .

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٦ ــ ١١٧ .

(٣) ينظر : القسطاس في علم العروض : ٨٠ ، ومفتاح العلوم : ٥٣٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وملحوظته هذه إنما هي وليدة التدبر العميق لكتاب الله ــ عز وجل ــ وتفهم طبيعة اللغة العربية البليغة، مع أن كلامه في مسألة تلاؤم الحركات عموماً يظل تنظيرا بحاجة إلى تطبيقات موضحة.

كما أشار العلماء في كتب دلائل النبوة إلى حروف المعاني، وذلك من خلال النظر في أدوات الربط ومدلولاتها، فقد أشار ابن قتيبة في أثناء حديثه عن الاستثناء بـ (إنْ) (١) في قول الله عز وجل:] لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ Z (٢)،بأنهم قالوا (٣) بأن((الاستثناء بإنْ يدل على الشك، والله لا يشك، و"لتدخلن" تحقيق، فكيف يشك بعد تحقيق من الله، والقول في هذا أنَّ (إنْ) في مقام (إذ) في كثير من المواضع، كقوله تعالى:] z y x } | { ~ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ Z (٤)، وقوله:] } | { ~ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ Z (٥) يريد إذ كنتم مؤمنين، فكأنه قال: لتدخلن المسجد الحرام إذ شاء الله دخولكم إياه آمنين. ومثله قول رسول الله ﷺ في أهل

(١) الاستثناء هنا عند ابن قتيبة بمعنى الشرط. وقد سماه أبو البقاء الكفَوي (الاستثناء العرفي)، وهو ما عُلِّق بمشيئة الله تعالى. ينظر : الكُليـّات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية): أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: ٩١ ، قابله على نسخة خطية، وأعدَّه للطبع، ووضع فهارسه: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢ ، ١٤١٩هـ ، وشرح كتاب سيبويه لأبي سعيد السيرافي : ١٠ / ١١٤ ، تحقيق : أ. د صلاح رواي ، و د . مها مظلوم خضر ، مراجعة أ . د : محمد عبدالرؤوف ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ.

(٢) سورة الفتح : آية : ٢٧ .

(٣) كثيراً ما يورد ابن قتيبة عبارة (قالوا في قول الله عز وجل) أثناء حديثه عن الآيات القرآنية، وهو يقصد بذلك الطاعنين في القرآن.

(٤) سورة البقرة : آية : ٢٧٨ .

(٥) سورة آل عمران : آية : ١٣٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القبور:(إنا إن شاء الله بكم لاحقون) (١) لا يجوز أن يكون شكٌّ في لحوقه بهم، وأما المراد: نحن إذ شاء الله بكم لاحقون)) (٢).

وابن قتيبة في حديثه السابق يشير إلى جواز استعمال (إنْ) في الشرط المقطوع به، وحينئذ تخرج عن دلالتها الأصلية، إذ هي في الأصل للشرط المشكوك فيه، ويكشف ابن قتيبة سرّ هذا الخروج ومغزاه، حيث يوضحه من خلال آية الفتح، وذلك بأن الله تعالى هو المخبر، وما يخبر عنه تعالى فهو كائن لا محالة، فلا سبيل للشكّ في أخبار الله، ثم إن الاستثناء يدخل على شيء يجوز أن يكون ويجوز ألا يكون، والثاني غير وارد في أخبار الله إطلاقاً، وقد قرَّر بعض المفسرين ما ذهب إليه ابن قتيبة ونسبوه إليه (٣)، ((وقد يكون في هذه الطريقة معنى تأكيد الشرط وتقريره فضلاً عن أنه مقطوع به)) (٤)، فالدخول إلى مكة والمسجد الحرام واقع لا محالة؛ لأن المولى ــ سبحانه ــ أخبر به، ولكن الله أراد أن يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان، فتظل المشيئة في نفوسهم وتستقر في قلوبهم، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية. والقرآن يتكئ على هذا المعنى، ويقرر هذه الحقيقة، ويذكر هذا الاستثناء في كل

---

(١) ينظر : صحيح مسلم بشرح النووي : ٣ / ١٣٨ (كتاب الجنائز).

(٢) أعلام رسول الله : ١٤٨ ، وقد ذكر ابن قتيبة هذا الكلام بنصه في كتابه : المسائل والأجوبة : ٢٥٥ ، تحقيق : مروان العطية، ومحسن خرابة، دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ١٤١٠ هـ.

(٣) ينظر : زاد المسير في علم التفسير : عبدالرحمن بن علي الجوزي : ٧ / ٤٤٣ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٠٤ هـ . كما صرَّح ابن عطية بأن (إنْ) في الآية للاستثناء، وقد أورد أقوال العلماء في معناه، وذكر منها: أنَّ (إنْ) بمعنى (إذْ)، فكأن الله تعالى قال: (إذْ شاء الله)، ويُعلق ابن عطية على هذا الرأي بقوله:((وهذا حسنٌ في معناه، لكن كون (إنْ) بمعنى (إذْ) غير موجود في لسان العرب)). ينظر : المحرر الوجيز : ١٣ / ٤٦٩ ــ ٤٧٠ .

وكأن أبا جعفر النحَّاس اطلع على كلام ابن قتيبة، حيث قال في كتابه(إعراب القرآن):((وقد زعم بعض أهل اللغة أن المعنى لتدخلن المسجد الحرام (إذ) شاء الله، وزعم أنه مثل قوله:﴿ **وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ ، وأن مثله:(وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)، وهذا قولٌ لا يُعرَّج عليه، ولا يَعرِف أحد من النحويين(إنْ) بمعنى(إذ)، وإنما تلك(أنْ) فغَلِط وبينهما فصلٌ في اللغة والأحكام عند الفقهاء والنحويين)) إعراب القرآن : أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس : ٤ / ٢٠٤ ، تحقيق : د. زهير غازي زاهد ، عالم الكتب ، بيروت، ط ٣ ، ١٤٠٩هـ.

(٤) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٢٤٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موضع، حتى المواضع التي يذكر فيها وعد الله، ووعد الله لا يخلف، ولكن تعلق المشيئة به أبداً طليق. إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين، ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور(١). وقد أجاز البلاغيون ما ذهب إليه ابن قتيبة، وذكروا أغراضاً بلاغيـــة أخرى لجواز استعمال (إنْ) في مقام القطع بوقوع الشرط (٢).

٢ ـ مـادة الكلمـة:

اهتمَّ علماء كتب دلائل النبوة بدراسة الكلمة وملاءمتها لسياقها، فقد أشار ابن قتيبة إلى ربط مدلول الكلمة بسياقها حتى تكون ملائمة له على أحسن وجه، ويـــساعده علـــى إدراك ذلك إلمامه باللغة ومعرفته لدلالاتها، لذلك يقول في قوله تعالى:] يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ Z (٣) ((والناظر في هذا بغير علم يقول: أما في قوله: قوم من قوم ما أغنى عن قوله: ولا نساء مـــن نساء؛ لأن النساء يدخلن في القوم، يقال هؤلاء قوم فلان للرجال والنساء مـــن عـــشيرته. والقوم للرجال دون النساء ثم تخالطهم النساء، فيقال هؤلاء قوم فلان، ولا يجوز أن يقـــال للنساء فيهن رجل هؤلاء قوم فلان، ولكن يقال من قومه رجال والنساء منهم. وإنما يسمى الرجال دون النساء قوماً؛ لأنهم يقومون في الأمر مع الرجال ويعينوهم به عنـــد الـــشدائد ويتصرفون. وواحدهم قائم كما يقال زائر وزَوْر، وصائم وصوم، وقائم وقوم. ومثله لقـــوم الرجل نَفَرَةٌ جمع نافر لأنهم ينفرون معه إذا استنفرهم، قال امرؤ القيس يذكر رامياً:

فَهْوَ لا تَنْمي رَمِيَّتُـــهُ ما لَهُ لا عُدَّ مِن نَفرِهْ (٤)

---

(١) ينظر : في ظلال القرآن : ٦ / ٤٨٤ .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم : ٢٤٠ ، والإيضاح : ١٩١ .

(٣) سورة الحجرات : آية : ١١ .

(٤) البيت من (المديد) ينظر : ديوان امرئ القيس : ١٢٥ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القـــاهرة ، ط ٣ ، ١٣٨٩هـــ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول إذا عُدَّ قومه لم يُعدّ معهم، أي أماته الله قتله الله. هذا وأشباهه مما خرج مخـــرج الدعاء، ولا يراد به الوقوع. وما يدلل على أن القوم هم الرجال قول زهير:

وما أدري وسوف إخالُ أدري أقومٌ آل حصنٍ أم نساءُ (١)

يريد: أرجالٌ هم أم نساء؟)) (٢)، فابن قتيبة يرى أن (قوم) جمع قائم، وأن لفظ (قوم) ليس بمستخدم للرجال والنساء معاً، ((وإنما قصد في الآية ذكر الذكور وترك ذكر الإنـــاث لأنهن توابع لرجالهن)) (٣)، وبهـــذا المعنى يكون ابن قتيبـــة قد قصد إلى أن (قوم) تـــؤدي معنى (رجال)، بدليل بيت زهير الذي ساقه، والقوامة التي أشار إليها بأنها عنـــد الرجـــال فقط، وكأنه بذلك يريد ارتباطها بقوله تعالى:] ! " # $ Z (٤).

وقول ابن قتيبة:(ومثله لقوم الرجل نَفَرَةٌ جمع نافر لأنهم ينفرون معه إذا استنفرهم) فيه إشارة إلى معنى لطيف ذكره المفسرون، وهو أن إسناد الـــسخرية إلى (قـــوم) دون أن يقول: لا يسخر بعضكم من بعض كما قال تعالى:] / 0 1 2 Z (٥)، للنـــهي عما كان شائعاً بين العرب من سخرية القبائل بعضها من بعض فوجّه النهي إلى الأقوام (٦).

والغريب أن ابن قتيبة لم يسهب في هذا القضية، فهو الرائد فيها، وكل من جاء بعده تبعه في كثير مما ذكر (٧).

وكان حري بابن قتيبة عندما ساق هذه الآية الكريمة، أن يشير إلى تنكير (قوم) في الموضعين وبيان سرّه البلاغي، فإن التنكير مرتبط بالجمع الذي أراده ابن قتيبة، وهو قـــصد إفادة الشياع، ولأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله (١).

---

(١) البيت من (الوافر) ينظر : شرح ديوان زهير بن أبي سلمى : ٨١ ، صنعة أبي العباس ثعلب ، قدم لـــه ووضـــع هوامشه وفهارسه : د. حنا نصر الحتّي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٨هـــ.

(٢) أعلام رسول الله : ١٤٤ ــ ١٤٥ .

(٣) الكشاف : ٥ / ٥٧٥ .

(٤) سورة النساء : آية : ٣٤ .

(٥) سورة الحجرات : آية : ١٢ .

(٦) ينظر : التحرير والتنوير: ٢٦ / ٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

(٧) ينظر : البحث البلاغي عند ابن قتيبة : محمد بن علي الصامل : ١٧٨ ، (رسالة ماجستير)، ١٤٠٤ هـــ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما يتصل بمادة الكلمة، الحديث عن تطابق لفظتين مختلفتين في أداء معنى من المعاني، وقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً حول حقيقة وجود هذه القضية في اللغة ــ والتي عُرفت فيما بعد بالترادف ــ بين مثبت ومنكر، فالمثبتون يرون جواز مطابقة عدد من الألفاظ في أداء معنى من المعاني (٢)، والمنكرون يرون أن لكلّ كلمة معناها الخاص ويعجز غيرها عن حمله، ولذلك ألَّف العلماء في رصد الفروق الخفية والدقيقة بين الكلمات التي تبدو في الظاهر أنها بمعنى واحد (٣).

ولم تخل كتب دلائل النبوة من وجود رأي لبعض علمائها في هذه القضية، فابن قتيبة كانت له إشارات حول الترادف في القرآن واللغة، ومع أنه صرَّح بوقوعه في ألفاظ اللغة وكلام العرب، أما في القرآن فلم يفصح عن رأيه بوضوح، إلا أني أميل إلى إمكانية نُدرة وقوعه عنده؛ لأن التساهل في استعمال ألفاظ اللغة في غير أماكنها الصحيحة كان من أسباب تأليفه كتاب " أدب الكاتب " (٤). ومن إشاراته حول هذه القضية، اجتهاده في

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير: ٢٦ / ٢٠٥ ــ ٢٠٦ .

(٢) على رأس هؤلاء سيبويه، وهو من أشهر المثبتين لهذه الظاهرة اللغوية، فقد بيَّن في باب اللفظ للمعاني: ((اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ... فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلس وذهب، واختلاف اللفظين والمعنى واحد نحو: ذهب وانطلق)). كتاب سيبويه : عمرو بن عثمان بن قَنبر : ١ / ٢٤ .

(٣) ألَّف أبو هلال العسكري كتاب الفروق اللغوية لنقض فكرة الترادف وإبراز الاختلاف بين الكلمات، فقد قرَّر بأن((كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة، فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه، وإلى هذا ذهب المحققون من العلماء)). الفروق اللغوية : أبو هلال العسكري : ٣٣ ، علق عليه ووضع حواشيه : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٣ ، ١٤٢٦ هـ.

(٤) حيث يقول ابن قتيبة في مقدمة الكتاب:((ولقد جرى في هذا المجلس كلام كثيرٌ في ذكر عيوب الرقيق، فما رأيت أحداً منهم يعرف فَرقَ ما بين الوَكَعِ والكَوَع، ولا الحَنَفَ من الفَدَع، ولا اللَّمى من اللَّطَع. فلما رأيتُ هذا الشأنَ كلَّ يوم إلى نقصان، وخشيتُ أن يذهب رسمُه ويعفو أثرُه، جعلتُ له حظاً من عنايتي، وجزءاً من تأليفي)). أدب الكاتب : عبدالله بن مسلم بن قتيبة : ١١ ــ ١٢ ، تحقيق : محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٠هـ. وقد جعل ابن قتيبة الباب الأول: " باب معرفة ما يضعُه النـاسُ غير موضِعِه "

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ربط مدلول الكلمة القرآنية بسياقها حتى تكون ملائمة له على أحسن وجه، ومن ثم يقارنها بأخرى لها نفس الدلالة، يقول ابن قتيبـــة في قولـــه تعـــالى:] ! " # $ % & ' ( ) * Z [١]، ((هل يجوز أن يقال: فلان يجعل لك حباً، أو يجعل لك ودّاً إذا أحبك ؟ فلم يرد ما ذهبوا إليه، وإنما أراد أن يجعل لهم في قلوب العبـــاد وداً ومحبة، وأنت ترى الحاضر المجتهد محبَّباً إلى البرِّ والفاجر، مهيباً مذكوراً بـــالخير، ونحـــوه قوله في موسى عليه السلام:] 8 9 : ; Z [٢] لم يُرد في هذا الموضع أني أحبك، وإن كان يحبه، وإنما أراد أنه حببه إلى القلوب حتى استحياه فرعون في السَّنة التي كان يقتل فيها الولدان)) [٣]، وكأن ابن قتيبة يشير إلى أن (الجعل والإلقاء) و (الود والمحبة) سواء، وإلى هذا ذهب بعض المفسرين[٤]. ولا أظن ـــ كما أسلفت ـــ إلى أن ابن قتيبة يؤمن بوقـــوع الترادف في القرآن، بل قد يرى ندرته كما سيأتي عند بعض العلماء، كيف لا وابن قتيبـــة يرتكز على خبرة لغوية قوية، ومعرفة بمفردات اللغة ومعانيها، وإدراك للمقام الذي تقع فيـــه الكلمة.

أما الزيدي فيشير إلى عدم إمكانية استخدام لفظة مكان أخرى في القرآن الكـــريم، فاصطبغت هذه القناعة بتحليلاته لموقع الكلمة في القرآن، وبيان القيمة الجمالية التي تحققهـــا مادة الكلمة في ظل سياقها القرآني، فالكلمة القرآنية ومادتها مقصودة لذاتها؛ إذ هـــي ذات معنى خاص لا يتحقق لغيرها من الكلمات، يقول الزيدي بعد قوله تعالى:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / Z [٥]، وقوله عز وجل:] فَخَرَجَ مِنْهَا

وفيه يُفرِّق بين كثير من الألفاظ التي يستخدمها الناس بمعنى واحد، كالظلِّ والفـــيء وغيرهـــا. ينظـــر: المـــصدر السابق: ٢١ ـــ ٤١ .

(١) سورة مريم : آية : ٩٦ .

(٢) سورة طه : آية : ٣٩ .

(٣) أعلام رسول الله : ١٤٧ .

(٤) ينظر : مفاتيح الغيب : ٢١ / ٢١٨ ، والتحرير والتنوير : ١٦ / ٨٨ ، وأضواء البيان : ٣ / ٥١٧ .

(٥) سورة النجم : آية : ١ ـــ ٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ à نَجِّنِي â ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ! " # $ % & ' ( )

9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . - , + *

Z K J I H F E D C B A ? > = ; : (١)

((فتأمل هذه الألفاظ ووقوعها مواقعها، لتعلم شرف هذا الكلام ...، ألا ترى أنه ــ عز وجل ــ لو قال: والكوكب إذا سقط، أو إذا غرب، أو قال: إذا أفل. لم ينب في الحسن مناب قوله تعالى:] ! " # $ Z (٢). ورأيت في كلام الجهال أنه لو قال: " والنجم إذا علا " كان أولى، ولن يكون ذلك ...، فبين اللفظتين في هذا الموضوع في باب الحلاوة والعذوبة مالا يخفى على بصير. ولو قال: ما زاغ نبيكم عن الهدى أو ما أخطأ رسولكم. أو قال: ما حاد عن الرشد والهدى، وما أشبه ذلك لم يغن غناء قوله عز وجل:] % & ' ( ) * Z (٣).

ولو قال: فهرب منها مذعوراً أو قال: مرعوباً، أو غير ذلك من الألفاظ التي تؤدي معناها لم يسدّ مسدّ قوله عز وجل:] فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ Z (٤) حلاوة وعذوبة.

ولو قيل: ولما أخذ على سمت مدين أو مضى حذاء مدين أو جهة مدين، لم يقع موقع قوله عز وجل:] ! " # $ Z (٥). وكذلك عامة ألفاظ هذه الآيات))(٦).

كما يلمح الماوردي بعدم وقوع الترادف في القرآن، فقد قرَّر بأن ألفاظ القرآن ((تحتمل معاني متغايرة تحار فيها العقول، وتذهل فيها الخواطر، وتكلُّ فيها القرائح، ثم لا

---

(١) سورة القصص : آية : ٢١ ــ ٢٣ .

(٢) سورة النجم : آية : ١ .

(٣) سورة النجم : آية : ٢ .

(٤) سورة القصص : آية : ٢١ .

(٥) سورة القصص : آية : ٢٢ .

(٦) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٥ ــ ١١٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تبلغ أقصاه، ولا تدرك منتهاه، حتى اختلفت فيه الوجوه وتقابلت فيه النظائر)) [١]، كمـــا يذكر الماوردي بأن ((الزيادة ــ في القرآن ــ (ممتنعة) [٢]، وتغيير ألفاظه منه مفتـــضحة، ولو كان في القدرة لالتبسَ، ولو أمكن لاشتبه)) [٣]، وقد ذكر الماوردي شبهة بـــين فيهـــا بأنه لو قيل: ((فقد زيد في القرآن فالتبس واشتبه، وأن النبي ﷺ لما نزلت عليه سورة الـــنجم بمكة، قرأها في المسجد الحرام، حتى بلغ إلى قوله تعـــالى:] { ~ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ Z [٤]، ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى، وإن شـــفاعتهنَّ لترتجى، ثم تمم السورة وسجد فسجد معه المسلمون، وفرح المـــشركون فـــسجدوا معـــه، ورضيت كفار قريش به، وسمع به من هاجر إلى أرض الحبشة فعادوا إلى أن أنكـــر عليـــه جبريل، فشقَّ عليه، ونزل فيه قوله تعـــالى:] X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e f g h i j k l m n o Z [٥]، قالوا: ومعلوم أن هذه الزيادة هي في مثل أسلوب السورة، وليست من الله تعـــالى، وقـــد اشتبهتْ، فلم لا كان ما سواها بمثابتها)) [٦]، وقد ردَّ الماوردي على هذه الشبهة بـــردٍّ لا يصل إلى الحدّ الذي يرجى منه، فقد بين بأن هذه زيادة لا تبلغ قدر التحدي فخرجت عـــن حكمه [٧]، و لم يشر الماوردي في رده إلى الافتضاح الذي ذكره في بداية حديثه، كيـــف لا وقصة الغرانيق التي أوردها باطلة من أصلها، ولا يصلح الاستشهاد بها في إثبـــات عـــصمة القرآن من الزيادة فيه، وقد ألَّف الشيخ المحدِّث " محمد ناصر الدين الألباني " رسالة في بيان بطلان قصة الغرانيق، وأسماها " نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق " [٨].

(١) أعلام النبوة : ١٣٣ .

(٢) في أصل الكتاب [ممتازة] وقد رأى المحقق بأنها غير مستقيمة، والأصح [ممتنعة] وبها تستقيم العبارة.

(٣) أعلام النبوة : ١٤٨ .

(٤) سورة النجم : آية : ١٩ ـــ ٢٠ .

(٥) سورة الحج : آية : ٥٢ .

(٦) أعلام النبوة : ١٤٩ .

(٧) ينظر : أعلام النبوة : ١٤٩ .

(٨) هذه الرسالة مطبوعة، وقام بنشرها المكتب الإسلامي، بيروت ، ط ١ ، ١٣٧٢ هـــ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا وقد تحدث العلماء كثيراً عن قضية الترادف في القرآن، وخلص أغلبهم إلى أنه نادر أو معدوم، مع جواز وجوده كظاهرة لغوية، فهذا الرماني يضع كتاباً في " الألفاظ المترادفة " ويقول عن الفَرَح بأنه: السرور والحبور والجذل والغبطة والبهج والارتياح... (١)، فكل هذه الألفاظ بمعنى واحد، ثم يأتي الرماني لينفيه في النكت (٢)، وكذا ابن تيمية فإنه يرى قلة وقوعه في ألفاظ اللغة، ويحكم بندرته أو انعدامه في القرآن الكريم (٣). وهذا يدل على أن العلماء اعترفوا بالترادف ظاهرة لغوية واقعية، ونفوها من القرآن؛ لأن السياق القرآني أفضل جانب تطبيقي يبين ظلال الفروق الدقيقة بين هذه المفردات المترادفة (٤).

وفي العصر الحديث أخذت بنت الشاطئ على نفسها الانتصار للمفردة القرآنية، وذلك من خلال رصدٍ تَتَبُعيٍّ لاستعمالات اللفظ في القرآن الكريم، وتحديد مواطن استعماله، ولعل هذا نابع من اقتناعها بعدم وجود كلمتين تعبران عن معنى واحد في كلمات القرآن، فانتدبت نفسها لهذا الأمر في كتابيها " الإعجاز البياني للقرآن " و " التفسير البياني للقرآن الكريم " بجزئيه، وقد قامت في الكتاب الأول على تنظير المسألة، ومن ثم تطبيقها على عدد من الألفاظ، كالفرق بين الرؤيا والحلم، وآنَسَ وأبصر، والنأي والبعد، وغيرها(٥)، وخلصت إلى نتيجة حاسمة تقضي بأنه بعد التتبع الاستقرائي لمعجم ألفاظ القرآن، وجدت بأن القرآن الكريم يستعمل اللفظ بدلالة معينة محدودة، ولا يمكن أن يقوم لفظ مقام لفظ آخر(٦)، وإن كانت لا تنفيه ـــ كغيرها ـــ كظاهرة لغوية، معلِّقة ذلك بشرط تعدد اللغات، حيث تقول:

---

(١) ينظر : الألفاظ المترادفة : علي بن عيسى الرماني : ٩ ، تحقيق: محمود الشنقيطي، مطبعة الموسوعات، القاهرة، ط ١ ، ١٣٢١ هـ.

(٢) ينظر : النكت في إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ٩٧ ـــ ٩٨ .

(٣) ينظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ١٣ / ٣٤١ ، جمع وتحقيق : عبدالرحمن بن قاسم وابنه محمد ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة.

(٤) ينظر : جماليات المفردة القرآنية : د. أحمد ياسوف : ٦٣ ، دار المكتبي ، دمشق ، ط ٢ ، ١٤١٩هـ.

(٥) ينظر : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق : ٢١٠ ـــ ٢٣٨ .

(٦) ينظر : المرجع السابق : ٢١٤ ـــ ٢١٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

((وإنما يشغلنا الترادف حين يقال بتعدد الألفاظ للمعنى الواحد، دون أن يرجع هذا الترادف إلى تعدد اللغات، أو يكون بين الألفاظ المقول بترادفها قرابة صوتية)) (١).

ونخلص مما سبق إلى أن العلماء في كتب دلائل النبوة أسهموا في هذه القـــضية، و لم يكن لرأيهم اختلاف كبير عما أجمع عليه العلماء فيما بعد.

٣ ـ هيئـة الكلمـة :

لم يغفل العلماء في كتب دلائل النبوة الإشارة إلى هيئة الكلمة وصيغتها ومدلولاتها، وتدبر وجوه هذه الهيئة مع السياق والقصد، وكان من ذلك ما أشار إليه ابن قتيبة من لمحات يسيرة في أبنية المشتقات.

وقف ابن قتيبة عند أبنية المشتقات، ونظر في المصدر (ودّا) في قوله تعـــالى:] ! " # $ % & ' ( ) * Z (٢) وبيَّن أنـــه جـــــاء على (فعول) في موضع (مفعول)، وأن إيثار المصدر هنا جاء لأن الله أراد أن يحدث لهـــم في قلوب العباد ودّاً ومحبة (٣)، من غير تودد منهم ولا تعرض للأسباب التي يكتسب النـــاس بها مودات القلوب من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك، بدليل قولـــه: ((وأنت ترى الحاضر المجتهد محبَّباً إلى البرِّ والفاجر، مهيباً مذكوراً بالخير)) (٤). كما ذكر ابن قتيبة أَثراً آخر مشابهاً للآية وهو((قول عبيد بن عمير (٥) لـــ "الإيمان هيوب" (٦) في مكان

---

(١) ينظر : المرجع السابق : ٢١٠ .

(٢) سورة مريم : آية : ٩٦ .

(٣) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٧ .

(٤) المصدر السابق : ١٤٧ .

(٥) هو عبيد بن عمير بن قتادة الليثي ، قاضي أهل مكة ، ومن أبلغ الناس ، له رواية عن كبار الصحابة ، ثقـــة مـــن كبار التابعين ، مات سنة ٦٨ هـــ. ينظر : الإصابة في تمييز الصحابة : أحمد بن علي بن حجر العـــسقلاني : ٥ / ٦٠ ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٢هـــ ، وطبقات الحفاظ : ١ /٢٢ .

(٦) هذا أثر ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه بهذا النص (الإيمان هيوب)، ينظر : الكتـــاب المـــصنف في الأحاديـــث والآثار : عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي : ٦ / ١٥٩ (كتاب الإيمان والرؤيا) تحقيـــق : كمـــال يوســـف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مهيب، فجاء بفعول في موضع مفعول، كما يقال: ركوب القوم لما يركبون، وحلوب القوم لما يحلبون، أي محلوبهم ومركوبهم)) (١).

ومن خلال ما سبق يتضح جهد ابن قتيبة في النظر في هيئة الكلمة، وأن بقية علمـــاء كتب دلائل النبوة لم يسهموا فيها.

إن دراسة المفردة عند علماء كتب دلائل النبوة، لا يعدو أن يكون مجرد ملاحظات عابرة، أو استطرادات شملت قضايا أخرى، ومع ذلك لا نبخس جهدهم، فقد وقفوا عنـــد المعاني البلاغية لبعض الحروف والأدوات، كما درسوا مواقع المفردات في الـــنص القـــرآني، ومدى ملاءمتها لسياقها ومدلولاتها.

الحوت ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٠٩ هـــ.

(١) أعلام رسول الله : ١٤٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني : التركيب

هذا المبحث يدور حول دراسة ما ورد في كتب دلائل النبوة من حديث عن تركيب الجملة الواحدة أو الجمل المتجاورة، مما يتصل ببلاغتها وحسنها، وسوف أتناول في هذا المبحث حديث العلماء عن:

١ ـ الإنشاء .

٢ ـ خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

٣ ـ الإيجاز والإطناب .

ومن نافلة القول الإشارة إلى أن دراسة الجملة قد استنفدت جهداً كبيراً من علماء النحو والبلاغة، وقد امتزجت الدراسات النحوية بمسائل بلاغية، كما قامت الدراسات البلاغية في كثير من الحالات على دراسات نحوية، لذلك كان من الصعب على من يتصدى لدراسة الجملة دراسة أدبية بلاغية أن يفصل حديثه عن الدراسات النحوية، أو يحدّد بين اللونين تحديداً كاملاً وتاماً (١). فموضوع النحو والبلاغة مشترك، وهو تركيب الكلام وتأليفه، لكن تختلف الوظيفة في كل منهما، فالنحوية تنظر في صحة بناء التركيب وفق قوانين اللغة، بغض النظر عن المقام والحال، وأما الوظيفة البلاغية فتنظر في جمال التركيب، والتعليل لأسباب وروده في المقام والحال الذي هو عليه.

وفيما يأتي من صفحات عرضٌ لأساليب هذا المبحث من منظور علماء كتب دلائل النبوة.

(١) ينظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٢٦٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ ـ الإنشاء :

لم يتناول العلماء في كتب دلائل النبوة الحديث عن تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، سوى ابن قتيبة الذي أشار في حديث عابر عن خروج الاستفهام والأمر عن ظاهرهـــا إلى معان أخرى، وذلك حين قرَّر أن من كلام العرب((لفظ مستفهم به وهو تقريـــر، ولفـــظ مستفهم به وهو تعجب، ولفظ مستفهم به وهو توبيخ، ولفظ خرج على مذهب الأمر وهو نهي، ولفظ خرج على لفظ الأمر وهو تردد، ولفظ خرج على لفظ [الخـــبر] [١] وهـــو دعاء، مع أشياء كثيرة يطول تعدادها، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن)) [٢]، ولعل ذِكر ابن قتيبة للإنشاء بمعزل عن الخبر كان شائعاً عند من سبقه من العلماء، لكنه جمع بين تقـــسيم الكلام وبين الحديث عن الخبر واحتماله للصدق والكذب في كتابه " أدب الكاتـــب " [٣]، وبهذا التقسيم يكون ابن قتيبة قد قدَّم((توطئة لتقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، كما ســـار عليه البلاغيون فيما بعد)) [٤] .

وقد أرجع شيخنا الدكتور محمد الصامل استفـــادة ابن قتيبة هذا التقسيم للكلام من نصيحة "أبرويز" لكاتبه، فقد بيَّن بأن هناك تشابهـــاً كبيراً بين تقسيم ابن قتيبة وقول أبرويز لكاتبه، ويُدلل على ذلك بذكر ابن قتيبة لقول أبرويز في كتابه " عيون الأخبار"، وأن مجرد ذكره لهذا القول دليل على اطلاع ابن قتيبة عليه[٥].

---

(١) في المخطوط [الخبر] وهو أمر محتمل، ويؤيد هذا أمران: الأول: قوله بعـــدها: ((مـــع أشـــياء كـــثيرة يطـــول تعدادها)) ولعل في ذلك إشارة إلى أقسام الخبر التي تجاوزت عند ابن قتيبة تسعة آلاف قســـم، والتي ألمح إليهـــا في " أدب الكاتب" دون تمثيل لهـــا. والثاني: أن من موضوعات البلاغيين خروج الخـــبر إلى الـــدعاء كمـــا في قولك: رضي الله عنه، ورحمه الله. كما يجـــوز أن يكون [الأمر] بدل [الخبر] وذلك لمناســـبتها لمـــا قبلـــها، وهو الأقرب عندي.

(٢) أعلام رسول الله : ١٤٤ .

(٣) ينظر : أدب الكاتب : ٧ .

(٤) البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ١٦٣ .

(٥) ينظر : البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ١٦٣ ــ ١٦٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا ونلاحظ أن ابن قتيبة يجعل للإنشاء الطلبي قسمين هما الاستفهام والأمر، ويتعرَّض لهما من جهة الأغراض التي تخرج إليهما، فقد يأتي أسلوب الاستفهام ويفيد التقرير أو التعجب أو التوبيخ، ويأتي أسلوب الأمر ليفيد النهي أو التردد. وبرغم استحضار ابن قتيبة للشواهد القرآنية في كثير من المسائل اللغوية إلا أنه لم يتعرَّض إليها في هذه المسألة، مع أنه أشار إلى تضمّن القرآن لجميع هذه الأقسام. كما يلحظ تسمية ابن قتيبة للقسم الأول بـ (الاستفهام)، وتسميته له في "أدب الكاتب" بـ (الاستخبار).

على أن الغريب في الأمر أن ما ذكره ابن قتيبة في الإنشاء يختص بالإنشاء الطلبي، دون أدنى إشارة إلى الإنشاء غير الطلبي، كما نراه يغفل القسم الثالث من أقسام الإنشاء الطلبي الذي أشار إليه في كتابه " أدب الكاتب " وهو (الرغبة) (١).

هذا ومن المعلوم أن البلاغيين قاموا برصد الفروق الدقيقة بين الخبر والإنشاء، وذكروا الاختلاف والتباين بين مفهوميهما، وفصلوا القول في الأغراض التي يخرج إليهما الخبر والإنشاء.

٢ ـ خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر:

هناك اعتبارات وأحوال تقتضي العدول عن جريان الكلام على مقتضى الظاهر، فتجعل المتكلم يورد كلامه على صورة تخرج به عن مقتضى الظاهر. هذه الاعتبارات تناولها البلاغيون بالدرس والتحليل في مباحث معروفة اتفقوا على تسميتها مجتمعة باسم خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

وكان للعلماء في كتب دلائل النبوة إشارات لبعض صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، ومنها:

ـ **القلب**(٢): ذكر ابن قتيبة " القلب " واكتفى ببيان أنه من كلام العرب، وأن في القرآن ما يدل عليه، وسمَّاه (المقلوب). وكان من المنتظر أن يورد ابن قتيبة بعضاً من الأمثلة

(١) ينظر : أدب الكاتب : ٧ .

(٢) يريد ابن قتيبة بالقلب هنا القلب المعنوي، وهو أن يُطلق المتكلم لفظاً ويريد به عكسه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والشواهد القرآنية على هذا الأسلوب، خاصة وأنه من المهتمين بالشواهد البلاغية القرآنية. ومع أن ابن قتيبة لم يفصل القول في هذا الأسلوب في كتابه الذي ألفه في دلائل النبوة إلا أنه تحدث عنه((بتفصيل لم يسبق إليه، حيث أفرد له باباً في كتاب " تأويل مشكل القرآن " وسماه المقلوب)) (١).

ومع أن ابن قتيبة صرَّح بورود القلب في القرآن في كتابه الذي ألفه في دلائل النبوة، وساق له شواهد قرآنية في " تأويل مشكل القرآن " مفصلاً القول فيها، ومن ذلك قوله تعالى:] إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ © ﴿٨٧﴾ Z (٢) وقوله تعالى:] Z E D C B (٣) وغيرها(٤)، إلا أن جمهور العلماء اتفقوا على منع وروده في القرآن؛ لأنه لا يوجد وراء تقدير القلب في الآيات الكريمة اعتبار لطيف(٥)، ويؤكد حازم القرطاجني على وجوب تنزيه كتاب الله عنه؛ لأن العرب إن صدر ذلك منهم فبقصد العبث أو التهكم أو المحاكاة أو حال اضطرار، والله منزه عن ذلك(٦)، ويقول القرطاجني:((فكل كلام يمكن حمله على غير القلب بتأويل لا يبعد معناه فليس يجب حمله على القلب، وأما ما لا يمكن فيه التأويل فواجب أن لا يعمل عليه وأن يوقف عنده)) (٧).

---

(١) البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ١٦٧ .

(٢) سورة هود : آية : ٨٧ .

(٣) سورة النجم : آية : ٨ .

(٤) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة : ١٨٥ ــ ٢٠٩ ، شرحه ونشره : السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية.

(٥) ينظر : علم المعاني : دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني : د. بسيوني عبدالفتاح فيود : ٢٢١ ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٢٥هـ.

(٦) ينظر : البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٢٨٨ .

(٧) منهاج البلغاء وسراج الأدباء : حازم القرطاجني : ١٨٤ ، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب ابن الخوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٦م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر:

ـــ **التعبير بالعام وإرادة الخاص، والعكس**، وقد أشار إليهما ابن قتيبة وبين أنهما من كلام العرب، واستشهد على الأول بقوله تعالى:] p o n m l k Z t s r q [(١)، يقول ابن قتيبة:((وقال طائفة من اليهود هو ابن الله، و لم يقل ذلك كل اليهود، وهذا خصوص خرج مخرج العموم، كما قال الله تعالى:] ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ Z (٢)، و لم يقل ذلك كل الناس، وكما قال:] وَٱلشُّعَرَآءُ © ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ Z(٣)، و لم يرد كل الشعراء بذلك إن استثنينا منهم المؤمنين))(٤).

وأما التعبير بالخاص الذي يراد به العام فلم يصرح ابن قتيبة بمثال له، وإنما ساق آية كريمة بعد حديثه عن العام الذي يراد به الخاص مباشرة، ويفهم من خلال حديثه عنها إرادته للخاص المراد به العام، يقول ابن قتيبة:((قالوا في قول الله عز وجل:] C B A Z L K J I H G F E D [(٥)، و لم يكن لهم أخ يقال له هارون، ونحن نقول إنه لم يرد بها أخوة النسب، وإنما أراد ما أشبه هارون، أي مثل هارون في الصلاح، وكان في بني إسرائيل رجل صالح يسمى هارون. وقد يقول الرجل للرجل يا أخي لا يريد به أخوة النسب، وإنما يريد أخوة الصداقة أو أخوة الدين، قال الله تعالى:] إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ Z(٦)، وقد آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وقد يقول الرجل: هذا الشيء أخوه، إذا كان مشاكلاً ومشابهاً. قال الله تعالى:] ! " # $ %& ' ( ) [

---

(١) سورة التوبة : آية : ٣٠ .

(٢) سورة آل عمران : آية : ١٧٣ .

(٣) سورة الشعراء : آية : ٢٢٤ .

(٤) أعلام رسول الله : ١٤٨ .

(٥) سورة مريم : آية : ٢٨ .

(٦) سورة الحجرات : آية : ١٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Z[1] وهي الآية الأولى التي تشبهها)) [2]. وقد وافق ابن قتيبة فيما ذهب إليه جمع من المفسرين[3].

وهناك بعض الأسرار البلاغية التي تكمن في تلك الصور، فعلى سبيل المثال قوله تعالى:] Z t s r q p o n m l k [[4] فقد ذكر العلماء سرَّ إلصاق القول باليهود جميعاً، وهو أنَّ سكوت الباقين عليه وعدم تغييره يلزمهم الموافقة عليه والرضا به[5]. أما السر البلاغي في الخاص الذي أريد به العام في قوله تعالى:] Z L K J I H G F E DC B A [[6] فيكمن في التنبيه على أن إتيان الفواحش من أولاد الصالحين أفحش[7].

ومن الصور التي أشار إليها ابن قتيبة في خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر:

ـ **التعبير بالمفرد وإرادة الجمع، والتعبير بالجمع وإرادة المفرد والمثنى،** لكن ابن قتيبة اكتفى ببيان ورودهما في كلام العرب ومجيئهما في القرآن الكريم[8]، وبيَّن السبب في عدم حديثه عن هذه الأساليب وغيرها مما لم يتحدث عنها في كتابه الذي ألفه في دلائل النبوة، فقال في سياق ردِّه على الملاحدة الذين يطعنون على القرآن الكريم ويقولون إن فيه تناقضاً وفساداً في النظم((وقد قابلت ذلك بالاحتجاج عليهم فيه وتبيين المخارج منه في كتابي المؤلف في تأويل المشكل من القرآن، وكتابي المنسوب إلى المسائل، وطال أن أعيد ذلك في هذا الكتاب ورأيته يخرجه عن فنه، فاقتصرت في طيه على حروف متيسرة معدودة ابتهلتها على غلطهم وسوء أفهامهم، وكرهت أن ينطوي ذلك كله عنك فيتعلق قلبك إلى

---

(١) سورة الزخرف : آية : ٤٨ .

(٢) أعلام رسول الله : ١٤٨ .

(٣) ينظر : تفسير القرآن العظيم : ٣ / ١١٣ ، وروح المعاني: ١٦ / ٥٤٠ .

(٤) سورة التوبة : آية : ٣٠ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير : ١٠ / ٦٩ .

(٦) سورة مريم : آية : ٢٨ .

(٧) ينظر : تفسير البيضاوي : ٤ / ٩ .

(٨) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يتيسر لك النظر في ذينك الكتابين)) (١). وبالفعل فقد تحدث ابن قتيبة عنهما في "تأويل مشكل القرآن" في باب " مخالفة ظاهر اللفظ معناه " وفي حديثه عن الأول يقول:((ومنه واحد يراد به جميع، كقوله تعالى:] هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ Z(٢)، وقوله:] إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ Z (٣) ...))(٤) أما السر البلاغي في هذه المخالفة: ففي الآية الأولى جاءت (ضيفي) مصدراً لـ (ضافه) فيطلق على الواحد والجمع، ولذا صح جعله خبراً لهؤلاء، وإطلاقه على الملائكة عليهم السلام بحسب اعتقاده عليه السلام لكونهم في زي الضيف، وقيل بحسب اعتقادهم لذلك(٥). وفي الآية الأخيرة ((أفرد الرسول؛ لأنه مصدر وصف به فإنه مشترك بين المرسل والرسالة))(٦).

وفي حديثه عن التعبير بالجمع وإرادة المفرد والمثنى يقول:((ومنه جمع يراد به واحد واثنان، كقوله:] B C D E F G Z (٧): واحد واثنان فما فوق، وقال قتادة في قوله تعالى:] i j k l Z (٨): كان رجل من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم في النبي ﷺ، ويسير مجانباً لهم، فسماه الله طائفة وهو واحد...)) (٩)، وذكر المفسرون أن المقصود بالطائفة هنا(مخشيّ بن حُمَيِّر الأشجعي) (١٠) دون غيره، فيكون من باب إطلاق لفظ الجماعة على الواحد في مقام الإخفاء والتعمية(١).

---

(١) أعلام رسول الله : ١٤٣ .

(٢) سورة الحجر : آية : ٦٨ .

(٣) سورة الشعراء : آية : ١٦ .

(٤) تأويل مشكل القرآن : ٢٨٤ ــ ٢٨٥ .

(٥) ينظر : روح المعاني : ١٤ / ٤٢١ .

(٦) تفسير البيضاوي : ٤ / ١٣٥ .

(٧) سورة النور : آية : ٢ .

(٨) سورة التوبة : آية : ٦٦ .

(٩) تأويل مشكل القرآن : ٢٨٢ ــ ٢٨٣ .

(١٠) هو مخشيّ بن حميّر الأشجعي، له ذكر في مغازي ابن إسحاق في غزوة تبوك، وفي تفسير ابن الكلبي بسنده إلى ابن عباس وبسند آخر إلى ابن مسعود أنه ممن نزل فيه﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ**﴾ قال: فكان ممن عفى عنه مخشي من حمير فقال: يا رسول الله غير اسمي واسم أبي، فسماه عبد الله بن عبد الرحمن،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر:

ـ الدعاء الذي لا يراد به الوقوع، والجزاء عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان(٢): ويسرد لهما ابن قتيبة مجموعة من الشواهد والأمثلة في " تأويل مشكل القرآن"(٣)، فمن الشواهد على الدعاء الذي لا يراد به الوقوع قوله تعالى:] / 0 1 Z(٤)، والقتْل هنا يراد به اللعن؛ لأن من لعنه الله تعالى فهو بمنزلة المقتول الهالك(٥). وقول الرسول ﷺ للمرأة:((عَقْرى حَلْقى)) (٦)، أي عقرها الله وأصابها بوجع في حلقها، ومن الشواهد على الجزاء عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان قوله تعالى:] إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ Z(٧)، أي يجازيهم جزاء الاستهزاء، فالآية على هذا مؤولة بأن المراد بالاستهزاء الجزاء؛ لما بين الفعل وجزائه من مشابهة في القدر وملابسة قوية ونوع سببية، مع وجود المشاكلة المحسنة ههنا، ففي الكلام استعارة تبعية أو مجاز مرسل(٨).

ـ التعبير بالماضي عن المستقبل: واكتفى ابن قتيبة كذلك ببيان ورودها في كلام العرب ومجيئها في القرآن الكريم دون استشهاد أو تمثيل لها(٩)، لكنه يذكر مجموعة من الشواهد القرآنية على هذه الصورة في كتابه" تأويل مشكل القرآن "، يقول ابن قتيبة:((ومنه أن يأتي الفعل على بِنْية الماضي وهو دائم أو مستقبل، كقوله:] . / 0

فدعا مخشي ربه أن يقتل شهيدا حيث لا يعلم به فقتل يوم اليمامة و لم يعلم له أثر. ينظر : الإصابة في تمييز الصحابة : ٦ / ٥٣ .

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١٠ / ١٤٣ .

(٢) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٤ .

(٣) ينظر : تأويل مشكل القرآن: ٢٧٥ ، ٢٧٧ .

(٤) سورة الذاريات : آية : ١٠ .

(٥) ينظر : روح المعاني : ٢٧ / ١١ .

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه : ٢ / ٥٦٦ (باب التمتع والإقران والإفراد بالحج).

(٧) سورة البقرة : آية : ١٤ ـ ١٥ .

(٨) ينظر : روح المعاني : ١ / ٢١٤ .

(٩) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

1 2 Z [1]، أي أنتم خير أمة ... وقوله:] X Y Z [\ Z [2]، يريد يوم القيامة، أي سيأتي قريباً فلا تستعجلوه ...)) [3]، ففي الآية الأولى: أصل (كان) أن تستعمل لما وجد وانقطع، وكثر استعمالها فى الاستمرار، فإذا لم يكن دليل على الاستمرار حملت على الأصل، وهو الانقطاع، ودليل الاستمرار هنا بقاء الحال، فإن الخيرية في هذه الأمة باقية إلى قيام الساعة بإذن الله تعالى. وفي الآية الأخيرة ورد التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي في قوله (أتى) تنبيهاً على تحقق وقوعه[4].

ـ **التعبير بالمستقبل عن ماضي الزمان**[5]: وهذه الصورة لم أجد لها أثراً في كتب ابن قتيبة، ولعله استدركها في هذا الكتاب، مع أن أمثلتها كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى:] أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ´ µ ¶ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ Z [6]، فالتقدير: " فأصبحت " الأرض مخضرة، يقول ابن عاشور: ((وإنما عبَّر عن مصير الأرض خضراء بصيغة " تصبح مخضرة " مع أن ذلك مفرّع عن فعل " أنزل من السماء ماء " الذي هو بصيغة الماضي؛ لأنه قصد من المضارع استحضار تلك الصورة العجيبة الحسنة، ولإفادة بقاء أثر إنزال المطر زماناً بعد زمان كما تقول: أنعم فلان علىَّ فأروح وأغدو شاكراً له)) [7]، وهذا معنى تابع لا يدرك ابتداء من مبنى الكلمات التي صيغت منها الجملة. ومن أمثلة هذه الصورة قوله تعالى:] v w x y z { | ~ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ Z [8] فالتقدير: ثم قال له: كن " فكان " ((

---

(١) سورة آل عمران : آية : ١١٠ .

(٢) سورة النحل : آية : ١ .

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٢٩٥ .

(٤) ينظر : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير : محمد بن علي الشوكاني : ٣ / ١٤٧، دار الفكر ، بيروت .

(٥) أعلام رسول الله : ١٤٤ .

(٦) سورة الحج : آية : ٦٣ .

(٧) التحرير والتنوير : ١٧ / ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٨) سورة آل عمران : آية : ٥٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والتعبير بالمضارع مع أن المقام مقام المضي؛ لتصوير ذلك الأمر الكامل بصورة المشاهد الذي يقع الآن إيذاناً بأنه من الأمور المستغربة العجيبة الشأن، وجوَّز أن يكون التعبير بذلك؛ لما أن الكون مستقبل بالنظر إلى ما قبله)) (١)، ومن المعلوم أن الآية نزلت في جدال النصارى الذين غلوا في المسيح عليه السلام فاستحضار الصورة يقرِّب الأمر إلى عقولهم فكأنه رأي عين، وفي هذا إبطال لمعتقدهم الفاسد والله أعلم.

ـــ **مجيء المفعول على لفظ الفاعل والعكس**(٢): ويشير إليهما ابن قتيبة دون استشهاد أو تمثيل أو تعليق، وعدم بيانه كما أشرت راجع إلى رغبته في عدم الإطالة في هذا الكتاب، وقد ساق الشواهد على هاتين الصورتين في كتابه " تأويل مشكل القرآن "، ففي مجيء المفعول به على لفظ الفاعل ذكر ابن قتيبة مجموعة من الشواهد، منها قوله تعالى:] قَالَ ©عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ Z (٣)، أي لا معصوم من أمره، أما مجيء الفاعل على لفظ المفعول به فهو قليل، كقوله تعالى:] إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ Z (٤)، أي آتياً (٥).

ومما سبق يتبين أن ابن قتيبة أورد كثيراً من هذه الصور تِباعاً، مع إغفاله لعدد منها قام بذكرها في " تأويل مشكل القرآن " كذكره لعدد من صور الالتفات، واتصال الكلام بما قبله حتى يكون كأنه قول واحد وهو قولان، وغيرها (٦). وهو بعمله هذا يُعد أول من جمع كثيراً من مباحث باب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر تحت باب واحد سمَّاه" باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه"، ولا بد من الإشارة إلى أن ابن قتيبة سُبق إلى الحديث عن بعض موضوعات هذا الباب، لكنَّ من سبقه كان يتحدث عنها في مواضع متفرقة، فجاء ابن قتيبة وجعلها في باب واحد، وزاد عليها بعض الموضوعات وفصَّل القول

(١) روح المعاني : ٣ / ٢٤٦ ، وينظر : التحرير والتنوير : ٣ / ١١٢ .
(٢) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٤ .
(٣) سورة هود : آية : ٤٣ .
(٤) سورة مريم : آية : ٦١ .
(٥) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٢٩٦ ، ٢٩٨ .
(٦) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٢٨٨ ــ ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيها، وأكثر من التمثيل لها، وعني بتقسيم بعضها كما فعل في المقلوب. لذلك كلّه فإن ابـــن قتيبة يُعد رائداً في هذا الباب، وكل من جاء بعده تبعه في كثير مما ذكر(١).

و لم يقتصر ذكر صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر على ابن قتيبـــة، فهذا الزيدي يشير إلى أسلوب لم يتطرق له العلماء في كتب دلائل النبوة وهو أسلوب:

ــ **الالتفات**: وحديث الزيدي عنه جاء في سياق التشبيه في قوله تعالى:] ~ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ © كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا ´ ¶ µ ¸ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ Z(٢)، يقول الزيدي: ((شبَّه نوره بالمـــصباح، فقـــال:] ~ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ Z، ثم شبَّـــه الزجاجـــة بالكوكب، فقال:] © كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ Z وهو أضوأ الكواكب، ثم عاد إلى ذكر المصباح، وهذا يسمى الالتفات، فقـــال:] يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ Z إلى قوله:] يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ Z فعاد إلى ذكر النور، وهذا أيضاً مما يسمى الالتفات)) (٣)، وبعد هذه الإشارة اليسيرة إلى هذا الأسلوب، يُعقِّب الزيدي بتعريفه والتمثيل له قائلاً: ((وهو أن يجري ذكر شيء، ثم يتجاوز إلى غيره، ثم يذكر ثانياً، كما قال جرير:

مَتَى كَانَ الخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ   سُقِيْتِ الغَيثَ أَيَّتُهَـــا الخِيَـــامُ (٤)

فجمعت هذه الآية وجوهاً من الفصاحة، منها جزالة اللفظ ...، ومنها الالتفات بعد الالتفات)) (٥)، والأمر اللافت للانتباه أن الزيدي أشار إلى هذا الأسلوب قبل هذا الموضع بصفحة واحدة تقريباً دون تسمية له، مع أنه ساقه بالطريقة نفسها تماماً، ومعقّباً أيضاً ببيت جرير السابق، يقول الزيدي: ((قال عز وجل:] : ; < = > ? @

---

(١) ينظر : البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ١٧٧ ــ ١٧٨ .

(٢) سورة النور : آية : ٣٥ .

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٣ .

(٤) البيت من (الوافر)، ينظر : شرح ديوان جرير : محمد إسماعيل الصاوي : ٥١٢ ، مطبعة الصاوي ، ط ١ .

(٥) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Z A(١) إلى آخر الآية، فشبههم في حيرتهم وتبلّدهم واضطراب أمورهم وحرج صدورهم بمن يكون في ظلمـــات ورعد وبرق، ثم ذكر هذا المعنى بقوله عز وجل:] * + , - . / 0 1 2 3 4 5 Z(٢) ثم زاد في وصف أحوالهم فقال:] O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a Z (٣) ثم ردّ عز وجل هذا المعنى ــ أعني تأثير البرق في الأبصار ــ في غير هذه الألفاظ، فقال:] è é ê ë بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ Z (٤) وهذا من الفصاحة العجيبة والبلاغة التامة أن يرد معنى واحد بألفاظ مختلفة تجمعها الفصاحة، ثم عاد عز وجل إلى ذكر من بدأ بذكرهم، فقال:] K L M N Z (٥) وهذ قسم من الفصاحة، وهو أن يجري ذكر شيء ثم يتجاوز إلى ذكر غيره، ثم يعطفه عليه ويعاد ذكره، أعني المذكور أولاً، مثل قول جرير:

مَتَى كَانَ الخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ سُقِيْتِ الغَيثَ أَيَّتُهَـــا الخِيَـــامُ

فجمعت هذه الآية أنواع الفصاحة منها الجزالة في اللفظ مع التـــشبيهات والاســـتعارة الواقعة، والعطف آخر الكلام على أوله)) (٦). فالزيدي في هذا النص يـــشير إلى الالتفـــات دون مصطلح محدَّد، ولعل ذلك راجع إلى الاختلاف في المصطلح الذي تعـــرَّض لـــه هـــذا الأسلوب في بدايات تناوله في القرن الثالث الهجري، فأبو عبيدة (٢١٠هـــ) يجعله تحـــت مصطلح المجاز، والفراء (٢٠٧هـــ) يذكره دون مصطلح يحتويه.

ومن الواضح أن دلالة الالتفات عند الزيدي لا تنطبق على المفهوم الذي قرره البلاغيون فيما بعد، ولعله حينما ذكر هذا المفهوم كان متأثراً بإشارة ابن المعتـــز (٢٩٦هـــــ) في

---

(١) سورة البقرة : آية : ١٩ .

(٢) سورة الأنعام : آية : ١٢٥ .

(٣) سورة البقرة : آية : ٢٠ .

(٤) سورة النور : آية : ٤٣ .

(٥) سورة البقرة : آية : ١٩ .

(٦) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠١ ــ ١٠٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كتابه" البديع "، فمن صور الالتفات عند ابن المعتز: الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر (١)، وهذا ما أراده الزيدي. والدليل على ذلك أن بيت جرير الذي ذكره الزيدي، هو من بين الأمثلة التي أوردها ابن المعتز ليستشهد بها على هذه الصورة من صور الالتفات (٢). هذا ويكاد ينطبق مفهوم الالتفات عند ابن المعتز والزيدي على ما أطلق عليه البلاغيون فيما بعد " الاستطراد " (٣)، وهو المفهوم الذي كان مشهوراً به السكاكي وابن الأثير.

وواضح أن الزيدي لم يكن معنياً بهذا الأسلوب وبيان قيمته وذكر صوره عندما تطرق إليه، وإنما كان يعنيه بالدرجة الأولى بيان الاستعارة والتشبيه في الآيتين الكريمتين، لكن يؤخذ عليه تكراره للمفهوم والشاهد الشعري، وليته بَدَل هذا أشار إلى شيء من صوره أو بيان قيمته البلاغية وسط هذا التشبيه.

هذه صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر التي أشار إليها العلماء في كتب دلائل النبوة، غير أن تناولهم لها كان يغلب عليه طابع السرد والتعداد كما هو واضح عند ابن قتيبة، وإن كان له فضل الجمع والإحصاء، ومع ذلك فمجرَّد ذكرها في كتب غايتها ذكر دلائل نبوة النبي ﷺ لهو دليل على اهتمامهم ببلاغة القرآن الفائقة، وأنها من أهم الدلائل على إعجازه.

هذا و لم يزد البلاغيون على هذه الصور شيئاً يذكر، إلا بعض الأساليب، كالأسلوب الحكيم، وأسلوب التغليب.

---

(١) ينظر : البديع : ابن المعتز : ٧٣ ، شرحه وحققه : عرفان مطرجي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط ١، ١٤٢٢هـ.

(٢) ينظر : المصدر السابق : ٧٣ .

(٣) ينظر : الإيضاح : ٢ / ٥١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣ ـ الإيجـاز والإطنـاب :

الإيجاز والإطناب من أهم الفنون البلاغية، وهما من طرق أداء الكلام التي ينقل بهـا المتكلم ما يدور في نفسه، بحيث يكون التعبير ملائماً ومساوياً للمعنى الذي يريد، وبحيـث يكون مطابقاً لمقتضى الحال، فالحال قد تقتضي الإيجاز في القول وعندئذٍ تكون البلاغة في أن يوجز المتكلم ويختصر كلامه، وقد تقتضي الإطناب وعندئذٍ تكون البلاغة في إطالة الكلام، ولئن كان إجماع العلماء منعقداً على تقديم الإيجاز، إلا أن ((الكلام الطويل إن حوى كـل جزء منه فائدة تمس إليها الحاجة في الموضع، ولا يسهل أداء تلك الفائدة بأقل منه كان هـو عين الإيجاز المطلوب)) (١).

أ ـ الإيجـــاز:

تناول العلماء في كتب دلائل النبوة أسلوب الإيجاز، فابن قتيبة يستفتح به حديثه عند الإشارة إلى أساليب كلام العرب حيث يقول: ((وكلام العرب وحي وإيماء وإيجاز)) (٢)، ولعل هذه البداية من ابن قتيبة إشارة إلى الاهتمام والعناية بهذ الأسلوب، ومن الملاحـظ أن ابن قتيبة يكثر من إطلاق التسميات على هذا الأسلوب، فيذكر من أسمائـه هنـا الـوحي والإيماء، وقد يسميه جوامع الكلم (٣)، أو الاختصار (٤)، وقد يصف الإيجاز بالاختزال(٥).

ولم يفصح ابن قتيبة في كتابه الذي ألفه في دلائل النبوة عن مراده بالإيجاز، ولم يمثّل له، لكن يتضح ارتضاؤه بما نقله عن " أبرويز " حين نصح كاتبه بقوله: ((واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول)) (٦). وينظر ابن قتيبة إلى هذا الأسلوب نظرة معتدلة((فلم ينجرف

---

(١) النبأ العظيم : ١٦١ .
(٢) أعلام رسول الله : ١٤٤ .
(٣) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٣ ــ ٤ .
(٤) ينظر : المصدر السابق : ٨ .
(٥) ينظر : أدب الكاتب : ٢١٤ .
(٦) المصدر السابق : ١٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خلفه ليجعل البلاغة فيه كما فعل كثير ممن سبقه، بل يرى أن استعمال الإيجاز لا يصلح في كل مقام)) (١).

ومع أن ابن قتيبة لم يتطرق إلى التعريف والتمثيل ومواضع الاستعمال، إلا أنه أشار إلى الحذف كنوع من أنواع الإيجاز، يقول ابن قتيبة: ((وكلام العرب وحي وإيماء وإيجاز، فمنه محذوف للاختصار، ومزيد فيه للتوكيد)) (٢)، ولم يكتف بذلك، بل ذكر أمثلة تدل عليه، وذلك عندما أشار إلى جواز الحذف إذا كان في الكلام دليل على ما حُذف، يقول ابن قتيبة: ((قال الله جل ثناؤه: [J K L M N O P Q S T U V W X Z] (٣)، فالناظر في هذا بغير علم بمثله يقول القائل: يا أيها الرجل كل هذا الطعام وإن لم تفعل فما أكلته. ليس في هذا الكلام على هذا الوجه فائدة، وإنما أراد جل وعز: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك مجاهراً به غير خائف أحداً، وإن لم تفعل ذلك فما بلغت رسالته، [فاصدع] (٤) مجاهراً به غير خائف؛ لأن في قوله: [Z [\ ] Z] (٥) دليلاً على ذلك، وهذا من المحذوف الذي يدل ظاهر الكلام عليه)) (٦)، ويقول في موضع آخر: ((قال الله عز وجل: [وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ Z (٧) فإن فيه محذوفاً يدل ظاهر الكلام عليه، كأنه قال: أنا النذير المبين عقوبة أو عذاباً، مثل ما أنزلنا على المقتسمين، فجعل العقوبة أو العذاب إذ كان الإنذار يدل عليه ... ومثل هذا من المحذوف في كلام العرب أكبر من

---

(١) البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ١٨٤ .

(٢) أعلام رسول الله : ١٤٤ .

(٣) سورة المائدة : آية : ٦٧ .

(٤) في الأصل : [فأصم] وبها لا يستقيم المعنى . والدليل على ذلك ذكره في مسألة واحدة لقوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ مع آية المائدة، في كتابه " المسائل والأجوبة " ص : ٢٢٢ .

(٥) سورة المائدة : آية : ٦٧ .

(٦) أعلام رسول الله : ١٤٤ .

(٧) سورة الحجر : آية : ٨٩ ــ ٩٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يحاط به)) (١). وقد اكتفى ابن قتيبة هنا بذكر هذه الطريقة بصفتها واحدة من طرق الحذف، وإلا فقد فصَّل القول في طرق عدة في كتابه " تأويل مشكل القرآن " (٢).

وفي قول ابن قتيبة: ((فمنه محذوف للاختصار)) (٣)، وتسميته لأحد أبواب كتاب " تأويل مشكل القرآن " ((باب الحذف والاختصار)) (٤) بيان للهدف الذي من أجله يستعمل أسلوب الإيجاز، كما قد يكون فيه إيحاء للمتأخرين بنوعي الإيجاز، فكلمة الحذف تدل على إيجاز الحذف، وكلمة الاختصار تدل على إيجاز القصر، وبذلك يكون ابن قتيبة قد عرض لنوعي الإيجاز (٥). ولعل إفراده لإيجاز الحذف هنا دليل على عنايته به.

كما شارك الزيدي في تناول هذا الأسلوب، وقد فصَّل القول فيه، وعدَّه قسماً من أقسام الفصاحة. وقد يُسمي الإيجاز في مواضع كثيرة " الاختصار "(٦) .

ومع أن الزيدي قد أولى هذا الأسلوب شيئاً من العناية والاهتمام إلا أنه أغفل تعريفه والمراد به، وقد يفهم من خلال حديثه عنه أنه يريد به " تقليل الكلام مع استيفاء المعنى " فقد كرَّر هذا المعنى في أكثر من موضع(٧) كما سيأتي.

ومن مظاهر العناية بهذا الأسلوب عند الزيدي إلماحه بأن البلاغة تكمن في القدرة على التعبير سواء بالإيجاز أو الإطناب، فقد نقل عن بعض الفصحاء(٨) أنه وصف كاتباً

---

(١) أعلام رسول الله : ١٤٥ ــ ١٤٦ .

(٢) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٢١٠ ــ ٢٣١ .

(٣) أعلام رسول الله : ١٤٤ .

(٤) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٢١٠ .

(٥) ينظر : البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ١٨٥ .

(٦) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٧ ــ ١٠٨ .

(٧) ينظر : المصدر السابق : ١٠٥ ، ١٠٧ .

(٨) يبدو أن الزيدي يقصد الجاحظ، ويدل على هذا أن النص الذي أورده الزيدي قريب من النص الذي ورد في كتاب الحيوان للجاحظ، وفي نفس الموضع. ينظر : الحيوان : ١ / ٩١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالبلاغة فقال: ((إن أخذ [طوماراً] (١) ملأه، وإن أخذ شبراً كفاه. يريد أنه كان يبسط إذا شاء، ويوجز إذا شاء)) (٢).

ويلمح الزيدي إلى أن الإيجاز لا يصلح في كلّ مقام، فإن الله ــ عز وجل ــ لما أراده في معنى من المعاني وفي موضع معين قلّل الحروف، وبَسَط حيث أراد البسط في نفس المعنى وفي موضع آخر (٣).

ويبدأ الزيدي حديثه عن الإيجاز ببيان قسميه، فأحدهما قد يكون بتقليل الحروف مع استيفاء المعنى، والآخر قد يكون بالحذف، ثم يأخذ بتفصيل هذه الأقسام والتمثيل لها بشيء من التحليل اللطيف، مع استحضار ومقارنة للآيات القرآنية التي تندرج تحت المعنى الذي يتحدث عنه.

فأما حديثه عن إيجاز القصر فيظهر من خلال تدبره لعدد من الآيات القرآنية التي اتسمت بالإيجاز مع استيفاء المعنى، كما في قوله عز وجل: [t s r q p u v w Z (٤)، ففي هذه الآية((قلّل الحروف في هذا الموضع لما أراد الإيجاز، وبَسَط حيث أراد البسط في هذا المعنى فقال:] أَنَّا © ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا ´ µ ¶ ¸ وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ Z (٥)، وقال أيضاً:] خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ Z (٦). فانظر ــ رحمك الله ــ إلى شرف هذا الكلام، فإنه أوجز هذا الإيجاز، وذكر للإنسان حالتين إحداهما: أضعف الحالات، والأخرى: أقواها. ثم نبَّه على ما بينهما، فجمع في الآية وجهين من الإيجاز،

---

(١) جاء في الأصل [طوباراً]، والصواب كونها [طوماراً]، والطومار: واحد المطامير، وهي الصحيفة. ينظر : لسان العرب : ٩ / ١٤٥ .

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٦ .

(٣) ينظر : المصدر السابق : ١٠٥ .

(٤) سورة النازعات : آية : ٣١ ــ ٣٢ .

(٥) سورة عبس : آية : ٢٥ ــ ٣١ .

(٦) سورة النحل : آية : ٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أحدهما: تقليل الحروف، والثاني: حذف الوسائط بين الحالتين، مع جزالة اللفظ وحسن المعنى، ثم أراد ــ عز وجل ــ بسط هذا المعنى فقال:] e f g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z { | } ~ ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ © ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ Z (١). وهذا باب كبير من الفصاحة؛ لأن البليغ هو الذي يبسط الكلام إذا شاء بسطه من غير خطل، ويرخي عنان الخطاب، ويمتطي ظهر الإطناب، ويوجز إذا شاء الإيجاز من غير تحريف للمعنى)) (٢).

ثم يقف الزيدي على آيات في مواضع مختلفة من القرآن الكريم، ويلحظ ببراعة تدرّج القرآن في بسط المعنى، وهذا ما يؤكد بأن الإيجاز ليس بمحمود في كل موضع، يقول الزيدي: ((ومن هذا الباب قوله عز وجل:] k l m n o p q r s t u v w x y z Z (٣)، فأراد ــ عز وجل ــ هذا الإيجاز، ثم لما أراد أن يزيد هذه الصفة يسيراً مع البسط قال:] v w x y z { | } ~ عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ © كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ Z (٤)، ثم لما أراد أن يزيد على ذلك في البسط قال عز من قائل:] ـ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ Z (٥)، ثم لما أراد ــ عز وجل ــ البسط التام بسط في السورة الذي يذكر فيها هوداً ــ صلى الله عليه ــ والسورة الذي يذكر فيها الأعراف، والسورة التي يذكر فيها الشعراء، وعلى هذا أوجز ذكر ثمود، فقال عز وجل:] فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا

---

(١) سورة المؤمنون : آية : ١٢ ــ ١٤ .

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٥ ــ ١٠٦ .

(٣) سورة الذاريات : آية : ٤١ ــ ٤٢ .

(٤) سورة القمر : آية : ١٨ ــ ٢٠ .

(٥) سورة الحاقة : آية : ٦ ــ ٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِٱلطَّاغِيَةِ ´ Z(١)، ثم بسط ذلك في سائر المواضع ... ومن ذلك قوله عز وجـــل:] `
a b c d e f g h i j k l Z (٢)، وقوله:] E F
G H I J K L Z(٣)، فدل عز وجل بهاتين الآيتين علـــى حـــسن العشرة بأوجز اللفظ، ثم [بسط] (٤) ذلك في السورة الـــتي يـــذكر فيهـــا الحجـــرات أتم بسط))(٥). وهذا جهد من الزيدي يستحق التقدير، لكن ينقصه شـــيء مـــن التوضـــيح والدراسة، فلو نظر في عمق المعاني وتتابعها، وكيف يُمهّد القرآن السابق للاحق، وما وجـــه الترتيب بين الآيات التي تدور حول معنى واحد، لكان لعمله الأثر الكـــبير في الدراســـات البلاغية.

ويتابع الزيدي حديثه عن إيجاز القصر، ويقف عند بعـــض الـــشواهـــد القرآنيـــة ليقارنها بأشعار وأقوال العرب، ومن ذلك قولـــه: ((ومن الاختصار الحسن قوله عز وجل:] يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ Z(٦)، وقد طلب هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

ولوْ أَنَّها عُصفورةٌ لحسبْتَها مُسَوَّمةً تدعُو عُبَيْداً وأزْنَمـــا (٧)

وقال آخر:

ما زِلتَ تَحسِبُ كلَّ شيءٍ بعدَهُمْ خَيَـــلاً تَكُرُّ عَليكُمُ ورِجَـــالا (٨)

وقال آخر:

أَرَاني الخَوفُ عُدَّهَمْ أُلُوفَا وكانَ القومُ خَمســـاً في ثَلاثِ (٩)

---

(١) سورة الحاقة : آية : ٥ .
(٢) سورة فصلت : آية : ٣٤ .
(٣) سورة الأعراف : آية : ١٩٩ .
(٤) جاء في الأصل [ضبط] والصواب : بسط.
(٥) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٦ ـــ ١٠٧ .
(٦) سورة (المنافقون) : آية : ٤ .
(٧) البيت من (الطويل) وهو للعوَّام بن شوذب الشيباني، جاهلي. ينظر: الحيوان : ٥ / ٢٤٠ .
(٨) البيت من (الكامل) وهو لجرير يهجو فيه الأخطل. ينظر : شرح ديوان جرير : ٤٥١ .
(٩) البيت من (الوافر) و لم أتمكن من معرفة قائله .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلم يتفق لهم هذا الاختصار، ولا هذه العذوبة. وسمعت بعض أهل الأدب يحكي أن شاعرين كانا يتهاجيان فقال أحدهما في صاحبه:

* يحسب كل صيحة عليه .. *

فكاع (١) الآخر عنه، وضعفت نفسه إعجاباً بهذا البيت، إحساساً من نفسه بالعجز عن مثله إلى أن عرف أنه أخذه من القرآن، فتجرأ عليه، وعادت له قوته، وأخذ في مهاجاته)) (٢).

والزيدي يشير إلى القصة التي ذكرها العلماء في بيت جرير السابق:

ما زِلتَ تَحسِبُ كلَّ شيءٍ بعدَهُمْ خَيلاً تَكُرُّ عَليكُمُ ورِجَالا

فقد ذكر المعافى بن زكريا (٣) أن مِن فَضْلِ جريرٍ تفضيله الأخطلَ في الشعر، واعترافُه بأن شعره يفضلُ شعرَ نفسه، على ما بينهما من العداوة والمهاجاة، مع أن جريراً قد أتى في قصيدته هذه بما ليس في قصيدة الأخطل ولا غيرها من شعره ما يدانيه ويقارب معناه، وذكر بيت جرير السابق، ثم أوضح أن هذا من أخصر الكلام وأفصحه وأبلغه، وقد روي أن الأخطل أُنشد عنده بيت جرير فتعجب منه وقال: من أين لابن المراغة هذا؟ فقيل له: إن هذا المعنى في القرآن، وتلي عليه قول الله عز وجل:] يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ Z(٤)، فقال الأخطل: أنا من أين لي مثل كتاب محمد آخذ منه وأستعين به؟! (٥).

ويستمر الزيدي في بيان الإيجاز في كلام الله تعالى، ويقارنه بما جاء عن العرب في معناه، فيقول: ((ومن ذلك قوله عز وجل:] وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ Z(٦) وقد أخذ هذا

---

(١) الكاعّ هو الضعيف الجبان . ينظر : لسان العرب : ١٩ / ٧٣ .

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٧ ــ ١٠٨ .

(٣) هو أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني، من علماء نهروان بالعراق، مات سنة ٣٩٠هـ. ينظر : سير أعلام النبلاء : ١٦ / ٥٤٦ .

(٤) سورة (المنافقون) : آية : ٤ .

(٥) ينظر : الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي : المعافى بن زكريا النهرواني الجريري : ٣ / ١٠٨ ، تحقيق: إحسان عباس، عالم الكتب، بيروت، ط ١ ، ١٤٠٧هـ.

(٦) سورة البقرة : آية : ١٧٩ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعضهم فقال: " وبعض القتل أحيا للجميع " وقال غيره: " القتل أقل للقتل " فلم يقع من ذلك موقع قوله:] وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ Z، وتتبع مثل هذا مما يطول)) (١). ولم يُبين الزيدي بم تميَّزت الآية الكريمة؟! ولم فاقت أقوال العرب؟! فقد ذكر العلماء وجوهاً متعددة بيّنوا فيها التفاوت البعيد بين الآية الكريمة وأقوال العرب منها:

ـ أن قوله تعالى:] فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ Z هو نظير قولهم "وبعض القتل أحيا للجميع" و " القتل أقل للقتل " وهو مع قلة عدد حروفه ونقصانها عما حكي عن الحكماء قد أفاد من المعنى الذي يحتاج إليه ولا يستغني عنه الكلام ما ليس في قولهم لأنه ذكر القتل على وجه العدل لذكره القصاص، وانتظم مع ذلك الغرض الذي إليه أجرى بإيجابه القصاص وهو الحياة وقولهم" القتل أقل للقتل " و " بعض القتل أحيا للجميع" إن حُمل على حقيقته لم يصح معناه؛ لأنه ليس كل قتل هذه صفته، بل ما كان منه على وجه الظلم والفساد فليست هذه منزلته ولا حكمه، فحقيقة هذا الكلام غير مستعملة، ومجازه يحتاج إلى قرينة وبيان في أن أي قتل هو إحياء للجميع، فهذا كلام ناقص البيان، مختل المعنى، غير مكتف بنفسه في إفادة حكمه وما ذكره الله تعالى من قوله:] وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ Z مكتفٍ بنفسه، مفيد لحكمه على حقيقته من مقتضى لفظه، مع قلة حروفه، ألا ترى أن قوله تعالى:] فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ Z أقل حروفا من قولهم " وبعض القتل أحيا للجميع" و "القتل أقل للقتل".

ـ ومن جهة أخرى يظهر فضل بيان قوله تعالى:] فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ Z على قولهم "القتل أقل للقتل "، وذلك أن في قولهم تكراراً للفظ، وتكرار المعنى بلفظ غيره أحسنُ في حدِّ البلاغة، ألا ترى أنه يصح تكرار المعنى الواحد بلفظين مختلفين في خطاب واحد ولا يصلح مثله بلفظ واحد، كقوله تعالى:] وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ Z فإنه لا تكرار فيه مع إفادته للقاتل، إذ كان ذكر القصاص يفيد ذلك، ألا ترى أنه لا يكون قصاصاً إلا وقد تقدمه قتل من المقتص منه، وفي قولهم ذكر للقتل وتكرار له في اللفظ، وذلك نقصان في

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البلاغة، فهذا وأشباهه مما يظهر به للمتأمل إبانة القرآن في جهة البلاغة والإعجاز من كلام البشر، إذ ليس يوجد في كلام الفصحاء مَنْ جَمَع المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة مثل ما يوجد في كلام الله تعالى.

ـــ كما أن في الآية طباقاً لطيفاً بين القصاص والحياة، والضد يظهر حسنه الضد.

ـــ كذلك في تنكير كلمة " حياة " إفادة للتعظيم والتنويع، فهي حياة عظيمة فريدة.

ـــ وفي خلوّ الآية الكريمة من لفظ " القتل " المشعر بالوحشة، وإشارتها إلى تحقيق العدل بلفظ القصاص أبلغ تعبير (١).

وأحسب أن الزيدي قد أفاد من العلماء قبله، فكثير من الأمثلة التي ساقها قد أوردها ابن قتيبة في كتابه " تأويل مشكل القرآن " (٢).

أما إيجاز الحذف فقد بيَّن الزيدي أن أنواعه كثيرة، ثم أخذ يستعرض بعض صوره ومنها:

١ ـــ حذف المضاف:

وعنه يقول الزيدي:((فمن ذلك ـــ يعني الاختصار ـــ أن تحذف المضاف، ويقام المضاف إليه مقامه، كقوله عز وجل:] r q p o n m l k j Z v u t (٣)، أراد أصحاب العير، وأهل القرية. وكقوله:] إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ

(١) ينظر : أحكام القرآن : أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص : ١ / ١٩٧ ، تحقيق : محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ١٤٠٥هـ ، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : فخر الدين الرازي : ٣٤٨ ـــ ٣٥٠ ، تحقيق ودراسة : د. بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٥م. وأنوار الربيع في أنواع البديع : ابن معصوم المدني : ٦ / ٢٤١ ، تحقيق : شاكر هادي شكر ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ط ١ ، ١٣٨٩هـ ، وعلم المعاني : دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني: ٣٩٥ ـــ ٣٩٦ .

(٢) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٤ ـــ ٨ .

(٣) سورة يوسف : آية : ٨٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ Z (١)، أي ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممـــات. وكقولـــه عز وجل:] (* + , - . / 0 Z (٢)، ذكر عن أكثر المفسرين أن المراد: إلى ثواب ربها ناظرة، فحذف الثواب، وهذا مذهب للعرب مـــشهور، وهـــو في القرآن كثير)) (٣). ومن المعلوم أن تأويله في الآية الأخيرة لا يصح، ولكن الزيدي أورد هذه الآية ليؤكد نفيه لرؤية الرب ــ عز وجل ــ وهو بهذا قد يخدم معتقده، كما هـــو حـــال المعتزلة والخوارج وطوائف من المرجئة والزيدية ممن يرون رأيه (٤).

٢ ــ حذف الاسم أو الفعل أو الجواب:

وعنه يقول الزيدي:((وقد يكون بحذف اسم أو فعل أو جواب، كقوله عز وجـــل: [H I J K L M N O P Q R S T U Z (٥)، وتقديره: لكـــان هذا القرآن، فحذفه. وكقوله: [\ ] ^ _ ` a b c d e f g h i j Z (٦)، تقديره: لكان ذلك خيراً لهم، فحذفه. ومثله قولـــه عز وجـــل:] وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ Z (٧)، ومثـــل ذلك:] هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ Z (٨)، وتقـــــــديره: أيساويه من لا يكون كذلك؟ فحذفه. ومثله في الشعر كثير، فمن ذلك قول النابغة:

أَزِفَ التَّرحُّلُ غيرَ أنَّ رِكَابَنا   لَمَّا تَزُلْ برحَالِنا وكأنْ قَدِ (٩)

(١) سورة الإسراء : آية : ٧٥ .

(٢) سورة القيامة : آية : ٢٢ ــ ٢٣ .

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٨ .

(٤) ينظر : مقالات الإسلاميين : ٢١٦ .

(٥) سورة الرعد : آية : ٣١ .

(٦) سورة التوبة : آية : ٥٩ .

(٧) سورة النور : آية : ١٠ .

(٨) سورة الزمر : آية : ٩ .

(٩) البيت من (الكامل)، ديوان النابغة: ٢٣ ، وفي الديوان [أَفِدَ] بدل [أزف].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يريد: كأن قد زالت. فحذف)) [١]، و لم يكتف الزيدي بذكر الأمثلة السابقة، بل ذكر أمثلة أخرى من الشعر [٢].

٣ ــ حذف العامل:

ومن صور الحذف((أن يضمر أحد المذكورين ويظهر فعل الآخر لهما، وذلك كقوله عز وجل:] - . / Z [٣] إذا قرئ بكسر اللام: المراد: وألحقوا الغسل بأرجلكم. وكقوله عز وجل:] ! " # $ % & ') (* + Z [٤] ثم قال:] 2 3 4 5 6 7 8 9 : Z[٥] والمراد: ويؤتون بفاكهة ولحم طير؛ لأن الفاكهة واللحم لا يطاف بهما)) [٦]، و لم يكتف الزيدي بذكر الأمثلة السابقة، بل ذكر أمثلة أخرى [٧].

٤ ــ حذف الظاهر اكتفاء بالضمير:

وعنه يقول الزيدي:((ومن الحذف إقامة الضمير مقام الذكر، نحو قوله:] e f g h Z [٨] يعني الشمس، و لم يجر لها ذكر، وهذا رأي عامة المفسرين، وإن كان بعضهم قال: إن المعنى هو الصافنات الجياد. ومن ذلك قوله عز وجل:] p q r [

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٨ ــ ١٠٩ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ١٠٩ . فقد ذكر الزيدي بيتين آخرين من الشعر.

(٣) سورة المائدة : آية : ٦ .

(٤) سورة الواقعة : آية : ١٧ ــ ١٨ .

(٥) سورة الواقعة : آية : ٢٠ ــ ٢١ .

(٦) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٩ .

(٧) ينظر : المصدر السابق : ١١٠ . فقد ذكر الزيدي ثمانية شواهد غير ما أشرت إليه.

(٨) سورة ص : آية : ٣٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Z y x w v u t s [1] يعني على الأرض، و لم يجر لها قبل ذلك ذكر... ومثله قول الشاعر:

لَعمْرُكُ ما يُغْني الثَّراءُ عَنِ الفَتى إذا حَشْرَجَتْ يَوماً وضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ [2]

يعني: النفس)) [3]. وقد ذكر الزيدي أمثلة أخرى غيرها [4] .

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن الزيدي قد أتى على بعض صور الحذف، وأغفل كثيراً منها ـــ كما يذكر ـــ بسبب كثرتها، وقد ألمح إلى الهدف من الحذف، وأنه يكون للاختصار [5]. والحق أن الزيدي قد أفاد من العلماء قبله في هذا الباب، فكثير من الأمثلة التي ساقها قد أوردها ابن قتيبة في كتابه " تأويل مشكل القرآن "، وقد نقل الزيدي كثيراً من تعليقات ابن قتيبة عليها بالنص [6].

والماوردي هو أحد علماء كتب دلائل النبوة الذين تناولوا الإيجاز، فقد قرَّر أن من وجوه إعجاز القرآن الكريم((إيجازه عن هذا الإكثار، واستيفاء معانيه في قليل الكلام، كقوله تعالى:] وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ Z [7] ... وقد حكى أبو عبيدة أن أعرابياً سمع رجلاً

---

(١) سورة النحل : آية : ٦١ .

(٢) البيت من (الطويل) لحاتم الطائي، ينظر : ديوان حاتم الطائي : ٥٢ ، تحقيق : د. مفيد قميحة ، دار المطبوعات الحديثة ، جدة ، ١٤٠٨هـ. وفي الديوان [أماوِيّ] بدل [لعمرك].

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٠ ـــ ١١١ .

(٤) ينظر : المصدر السابق : ١١١ . فقد ذكر الزيدي أربعة شواهد غير ما أشرت إليه.

(٥) ينظر : المصدر السابق : ١٠٨ .

(٦) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٢١٠ ـــ ٢٢٧ .

(٧) سورة هود : آية : ٤٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقرأ:] . / 0 Z [1] فسجد وقال: سجدتُ لفصاحة هذا الكلام)) [2]، ويقول في موضع آخر: ((من إعجازه كثرة معانيه التي لا يجمعها كلام البشر، وذلك من وجهين: أحدهما: ما يجمعه قليل الكلام من كثير المعاني، كقوله تعالى:] . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > @ A B C D E F Z [3] فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخَبَرين وبِشَارتين ...)) [4].

وحديث الماوردي السابق إنما هو إشارة إلى الإيجاز بنوعيه، فالأول إيضاح للإيجاز الشديد مع اندراج المعاني المتكاثرة تحت لفظها القليل، وذلك من خلال الآية الأولى التي استوعبت قصة إنهاء الطوفان، بحيث لم يُخلّ بشيء منها في أوجز عبارة وأخصر قول. والثاني قد ألمح إليه من خلال الآية الثانية ((فقَصْدُ شمول الأمر كل ما أمر الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ بتبليغه هو نكتة حذف متعلّق " تؤمر "، فلم يصرح بنحو: بتبليغه أو بالأمر به أو بالدعوة إليه، وهو إيجاز بديع)) [5]، أما الآية الثالثة ففيها من الإعجاز والإيجاز ما لا يخفى، وبيان احتوائها لما ذكر يتمثل في جمعها بين أمرين هما (أرضعيه) و (ألقيه في اليمّ)، ونهيين وهما (لا تخافي) و (لا تحزني)، وخبرين وهما (أوحينا) و (خفت)، وبشارتين وهما (إنا رادوه إليك) و (جاعلوه من المرسلين).

ومن خلال ما سبق يتبين أن العلماء في كتب دلائل النبوة قد أسهموا في بيان قيمة الإيجاز، فقد درسوه وذكروا أقوال العلماء فيه، كما شملت دراستهم بيان أنواع الإيجاز، والتمثيل لكل نوع، وبيان الطرق التي يتم بها الحذف والاختصار، ولعل هذا راجع إلى ما

---

(١) سورة الحجر : آية : ٩٤ .
(٢) أعلام النبوة : ١٢٨ ــ ١٢٩ .
(٣) سورة القصص : آية : ٧ .
(٤) أعلام النبوة : ١٣٣ .
(٥) التحرير والتنوير : ١٣ / ٧٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يمثِّله هذا الأسلوب من أهمية كبيرة في ميدان البلاغة عند هؤلاء العلماء، لينفذوا من خلاله إلى إثبات إعجاز القرآن البلاغي.

والملاحظ أن هؤلاء العلماء قد اختلفت طريقة تناولهم لهذا الأسلوب، فابن قتيبة اكتفى بالحديث عن إيجاز الحذف، وذلك في مواضع متفرقة من كتابه. أما الزيدي فقد أفاض وأجاد، واشتمل حديثه على نوعي الإيجاز. وأما الماوردي فقد ألمح ـ باختصار ـ إلى نوعي الإيجاز.

ب ـ الإطنـــاب:

أشار علماء كتب دلائل النبوة لأسلوب الإطناب إشارات متفرقة في كتبهم، غير أنهم لم يصرِّحوا بلفظ الإطناب إطلاقاً، ولعل هذا راجع إلى عدم استعمال مصطلح الإطناب في بدايات التأليف البلاغي.

فابن قتيبة يُقرّر بعد حديثه عن الإيجاز، أن في كلام العرب زيادة للتوكيد، وتكراراً للإفهام، وأن القرآن الكريم قد تناول هذين الغرضين (١)، وقد اكتفى ابن قتيبة بهذه الإشارة السريعة، والسبب في ذلك عدم رغبته بالإعادة والتطويل في هذا الكتاب، فقد بيَّن ذلك في كتابه " تأويل مشكل القرآن ".

وقد وضَّح ابن قتيبة ما أشار إليه من الزيادة والتكرار، فقد أفرد باباً في كتابه السابق سمَّاه " باب تكرار الكلام والزيادة فيه " (٢)، مبيِّناً مظاهر الإطالة في الكلام، وقد تحدث فيه بتفصيل لم يسبق إليه، فقد ترك الدراسة الوصفية لهذا الأسلوب والتي سار عليها

(١) ينظر: أعلام رسول الله : ١٤٤ .

(٢) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٢٣٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السابقون، وقدم لنا دراسة تطبيقية مفصلة عن الإطناب، كان مظهرها الحديث عن التكرار والزيـــادة(١).

وقد بدأ ابن قتيبة حديثه عن مظاهر الإطالة: بالتكرار، وذكر له الصور التالية:

١ ــ تكرار الأنباء والقصص، والهدف من ذلك أن((الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة، بفرضٍ بعد فرض؛ تيسيراً منه على العباد، وتدريجاً لهـــم إلى كمال دينه، ووعظٍ بعد وعظ؛ تنبيهاً لهم من سِنَة الغفلة، وشحذاً لقلوبهم بمتجدد الموعظـــة، وناسخ بعد منسوخ؛ استعباداً لهم، واختباراً لبصائرهم)) (٢)، واللافت للانتباه أن ابن قتيبـــة لم يتطرق إلى الأغراض الأخرى التي يفيدها تكرار الأنباء والقصص، فمن المعلـــوم أن فيـــه إعجازاً وبلاغة متناهية، فأما الإعجاز فإن إيراد المضمون الواحد في صور متعددة مع عجـــز العرب عن الإتيان بصورة واحدة منها أبلغ في التحدي، مع العلم بأن العرب في ذلك الوقت وصلوا قمة التفنن في البلاغة، وملؤوا الدنيا نثراً ونظماً، وأما البلاغـــة فإن إبـــراز المعـــنى الواحد في أساليب متنوعة غايـــة في البلاغة، كما أن تكرار القصـــة الواحدة يلفت الانتباه إليها ويُشعر بالاهتمام بها.

٢ ــ تكرار الكلام من جنس واحـــد، وبعضه يجزئ عن بعـــض، كتكـــراره في قولـــه تعالى:] ! " # $ Z (٣)، وفي سورة الرحمن بقوله:] z { | } ~ Z (٤)، ثم وضَّح ابن قتيبة الغرض من هذا التكرار بصورة عامة، وهـــو إفادة التوكيد والإفهام (٥)، وفي توضيح وتفصيل السرِّ في تكرار قولـــه تعـــالى:] ! " # $ Z يقول ابن قتيبة: ((ولا موضع أولى بالتكرار للتوكيد مـــن الـــسبب الذي أنزلت فيه:] ! " # $ Z؛ لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يعبدون،

---

(١) ينظر : البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ١٩١ .

(٢) تأويل مشكل القرآن : ٢٣٢ .

(٣) سورة الكافرون : آية : ١ .

(٤) سورة الرحمن : آية : ١٣ .

(٥) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٢٣٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ليعبدوا ما يعبد، وأَبْدؤا في ذلك وأعادوا، فأراد الله ـــ عز وجل ـــ حسم أطمـــاعهم، وإكذابَ ظنونهم، فأبدأ وأعاد في الجواب، وهو معنى قوله:] وَدُّواْ لَوۡ © فَيُدۡهِنُونَ ﴿٩﴾ Z[١] أي تلين لهم في دينك فيلينون في أديـــانهم)) [٢]، وهذا النوع من التكرار إنما يـــراد بـــه توكيد المعنى الذي كُرِّر من أجله اللفظ [٣].

٣ ـــ **الإتبـــاع**: يقول ابن قتيبة:((وربما جـــاءت الـــصفة فـــأرادوا توكيـــدها، واستوحشوا من إعادتها ثانية؛ لأنها كلمة واحدة، فغيروا منها حرفـــاً، ثم أتبعوهـــا الأولى، كقولهم: " عَطْشانُ نَطشان " كرهوا أن يقولوا: " عطشان عطشان " فأبدلوا مـــن العـــين نونا)) [٤]، وقد سمى ابن قتيبة هذه الصورة " الإتباع "[٥].

٤ ـــ **تكرار المعنى بلفظين مختلفين**، والغرض من ذلك إشباع المعنى والاتـــساع في الألفاظ، ومن أمثلته على هذه الصورة قوله ســـبحانه:] ! " # $ % Z [٦]، والنخل والرمان من الفاكهة، فأفردهما عن الجملة التي أدخلهما فيها؛ لفـــضلهما وحـــسن موقعهما [٧]. ومن المعلوم أن هذه الصورة قد أطلق عليها العلماء فيما بعد " ذِكر الخـــاص بعد العام ".

وينتقل ابن قتيبة للحديث عن المظهر الثاني من مظاهر الإطالـــة وهـــو الزيـــادة في التوكيد، ويوردها في صورتين:

---

(١) سورة القلم : آية : ٩ .

(٢) تأويل مشكل القرآن : ٢٣٧ .

(٣) ينظر : البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ١٩٣ .

(٤) تأويل مشكل القرآن : ٢٣٦ ـــ ٢٣٧ .

(٥) ينظر : غريب الحديث : ابن قتيبة : ١ / ٢٦٩ ، تحقيق : د. عبدالله الجبوري ، مطبعة العاني ، بغـــداد ، ط ١ ، ١٣٩٧هـــ.

(٦) سورة الرحمن : آية : ٦٨ .

(٧) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٢٤٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ ــ زيادة الكلمة في الجملة: ويبدأ الحديث عنها بقوله: ((وأما الزيادة في التوكيد فكقوله سبحانه:] F G H I J K Z (١)؛ لأن الرجل قد يقول بالمجاز: كلمت فلاناً، وإنما كان ذلك كتاباً أو إشارة على لسان غـيره، فأَعْلَمَنـا أنهـم يقولـون بألسنتهم)) (٢). وقد يذكر ابن قتيبة إلى جانب التوكيد غرضاً آخر، يقول ابن قتيبة في قوله تعالى:] فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ تِلۡكَ â كَامِلَةٌ Z(٣) ((أراد توكيد ما أوجبه عليه من الصيام بجمع العددين وذِكْرِه مجملاً)) (٤).

٢ ــ زيادة الحرف في الجملة: وذلك مثـل: لا، وألا، والبـاء، ومِـن، والـلام، والكاف، وعلى، وعن، وغيرها(٥)، ومن الأمثلة التي أوردها قوله سـبحانه:] وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ Z (٦) ((يريد وما يشعركم أنهـا إذا جـاءتْ يؤمنون، فزاد " لا "؛ لأنهم لا يؤمنون إذا جاءت)) (٧).

كما ذكر ابن قتيبة في باب آخر صورة أخرى للزيادة، تتمثل في زيادة الحـرف في الكلمـة (٨)، وذكر لها أمثلة منها قول الشاعر:

* أقولُ إذْ خَرَّتْ على الكَلْكَـالِ * (٩)

أراد: الكَلْكَـل(١٠).

---

(١) سورة آل عمران : آية : ١٦٧ .

(٢) تأويل مشكل القرآن : ٢٤١ .

(٣) سورة البقرة : ١٩٦ .

(٤) تأويل مشكل القرآن : ٢٤٣ .

(٥) المصدر السابق : ٢٤٣ ــ ٢٥٤ .

(٦) سورة الأنعام : آية : ١٠٩ .

(٧) تأويل مشكل القرآن : ٢٤٤ .

(٨) ينظر : المصدر السابق : ٣٠٤ .

(٩) البيت من (الرجز) وبعده: (يا ناقتي ما جُلتِ من مجالي)، و لم أعثر على قائله.

(١٠) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٣٠٤ ــ ٣٠٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و لم تقتصر الإشارة إلى الإطناب على ابن قتيبة، بل تناوله الماوردي في أثناء حديثه عن الإيجاز القرآني. وإذا تلمَّسنا ورود المصطلح عند الماوردي، نجده يطلق عليه " المبسوط " أو " البسط " تارة، و " المكرَّر " تارة أخرى، كما نلحظ إيراده لمصطلح " السَّهْل " بجوار " البسط " دائماً.

ويبدو من خلال حديث الماوردي أنه يريد تقسيم هذا الأسلوب قسمين هما:

١ ــ الزيادة. ٢ ــ التكرار.

وقد عرض الماوردي لهما وهو يجيب على شبهة افتراضية، حيث يقول: ((فإن قيل: ليس جميعه وجيزاً ومختصراً وفيه المبسوط، والمكرَّرُ بعضه أفصح من بعض، ولو كان من عند الله لتماثل و لم يتفاضل؛ لأن التفاضل في كلام من يَكِلُّ خاطره، وتضعف قريحته، فعنه جوابان:

أحدهما: أن اختلافه في البسط والإيجاز ليس للعجز عن تماثله، ولكن لاختلاف الناس في تصوره وفهمه، وتفاضله في الفصاحة بحسب تفاضل معانيه لا للعجز عن تساويه.

والثاني: أنه خالف بين معانيه ومختصره، وبين أفصحه وأسهله، ليكون العجزُ عن أسهله وأبسطه أبلغَ في الإعجاز من العجز عن أفصحه وأخصره، ولذلك فاضل بين خلقه ليُعرف به فرقُ ما بين الفاضل والمفضول)) (١). ومن الواضح في النص السابق إشارته إلى الهدف من الزيادة في القرآن الكريم.

ثم يخصّ الماوردي التكرار بالذكر، ويبيِّن الفائدة منه فيقول: ((أما تكرار قصصه، وتكرار وعده ووعيده فلأسباب مستفادة منها أنها في التكرار أوكدُ، وفي المبالغة أزْيد، ومنها أنها تتغاير ألفاظها فتكونُ إلى القبول أسرع، وفي الإعجاز أبلغ، ومنها أنها إنْ أخلَّ بالوقوف عليها في موضعٍ أدركها في غيره، فلم يخْلُ من رَغب ورَهب)) (٢).

---

(١) أعلام النبوة : ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق : ١٣٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونلاحظ مما سبق أن علماء كتب دلائل النبوة لم يعتنوا بالإطناب كعنايتهم بالإيجاز، فقد اقتصروا فيه على إشارات لبعض أنواعه، وإن كان لابن قتيبة جهد كـــبير في تفـــصيل وتوضيح بعض الجوانب، فإن ذلك لم يكن في كتابه الذي ألَّفه في دلائل النبوة.

هذا وقد ذكر البلاغيون أن الإطناب يأتي في الكلام على صور مختلفـــة، لأغـــراض بلاغية كثيرة (١):

١ ــ الإيضاح بعد الإبهام: وهذه الصورة تُظهر المعنى في صورتين مختلفتين: إحداهما مجملة مبهمة، والأخرى مفصلة موضحة، وذلك من شأنه أن يزيد المعنى تمكُّناً في النفس، فإن المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفتـــه علـــى ســـبيل التفصيل والإيضاح. ومن هذا النوع قوله تعـــالى:] g h i j k l m n o p q r s t Z (٢) فقوله:] g h i Z كلام مجمل مبهم فصَّله ووضحه الكلام الذي جاء بعده.

٢ ــ ذكر الخاص بعد العام: ويؤتى به للتنبيه على فضل الخاص، حتى كأنه ليس من جنس العـــام، ومن هذا النوع قولـــه تعـــالى:] ! " # $ % Z(٣) فقد خصَّ الله] $ % Z أي صلاة العصر بالذكر مع أنهـــا داخلـــة في عموم الصلوات؛ تنبيهاً على فضلها الخاص.

---

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن: الزركشي : ٣ / ٥٦ ــ ٧٠ ، والإيـــضاح : ١ / ٣١٩ ــ ٣٣٦ ، وأســـاليب بلاغية : د. أحمد مطلوب : ٢٣١ ــ ٢٤٤ ، وعلم المعاني : د. بسيوني فيود : ٤١٠ ــ ٤٢٣ ، وعلم المعـــاني: د. عبدالعزيز عتيق: ١٨٨ ــ ٢٠١ ، والبلاغة فنونها وأفنانها " علم المعاني ": د. فضل عباس: ٤٩٩ ــ ٥٢٥.

(٢) سورة طه : آية : ١٢٠ .

(٣) سورة البقرة : آية : ٢٣٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٣ ــ ذكر العام بعد الخاص: ويؤتى به لإفادة العموم، مع العناية بشأن الخاص، قال الزركشي: ((وهذا أنكر بعض الناس وجوده، وليس بصحيح)) (١) وساق له أمثلة منها قوله تعالى:] إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي Z (٢) والنُّسك العبادة، فهو أعم من الصلاة.

٤ ــ الاعتراض: وهو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملة لا محل لها من الإعراب، لفائدة غير دفع الإبهام، ومنه قوله تعالى:] 8 9 : ; = > ? @ Z (٣) فـ [; Z تضمنت تنزيهاً لله تعالى عن البنات.

٥ ــ التذييل: والإطناب بالتذييل هو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتوكيد، وهو قسمان:

أ ــ تذييل جار مجرى المثل، وذلك إن استقل معناه واستغنى عما قبله، كقوله تعالى:] " # $ & ' ( ) Z (٤) فجملة قوله تعالى:] & ' (Z تشتمل على معنى الجملة التي قبلها] " # $ Z وقد عقَّب بها عليها توكيداً لمعناها.

ب ــ تذييل غير جارٍ مجرى المثل، وهو الكلام الذي لا يستقل بمعناه، ولا يفهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله، ومنه قوله تعالى:] J K L M O P Q Z S R (٥) فقوله تعالى:] O P Q R S Z تذييل لقوله:] J K L M Z وقد جاء هذا التذييل توكيداً لما قبله؛ لاشتماله على معناه، ولكنه غير مستقل بمعناه ولا يفهم الغرض منه إلا بمعونة ما قبله.

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٤٧١ .
(٢) سورة الأنعام : آية : ١٦٢ .
(٣) سورة النحل : آية : ٥٧ .
(٤) سورة يوسف : آية : ٥٣ .
(٥) سورة سبأ : آية : ١٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا تلخيص لبعض الأنواع التي يأتي عليها الإطناب، وهناك أنواع أخرى ذكرها البلاغيون في كتبهم (١) . ومع أن الإطناب خاصة من خواص الإعجاز القرآني وملمحٌ من ملامحه، إلا أننا لا نكاد نجد في جهود السابقين دراسة متأنية للإطناب القرآني، عدا شذرات متفرقة في كتب البلاغة والتفاسير تُبيِّن بلاغة هذا الأسلوب وتدافع عنه بما يشهد به واقع النص(٢).

(١) ينظر : ص ٢٢٤ ، الحاشية رقم (١) .

(٢) ينظر : الإطناب في القرآن الكريم : دراسة بلاغية : د. مختار عطية : ١٥ ، دار الجامعة الجديدة ، الأسكندرية ، ٢٠٠٨م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحـث الثـالث : التصويـــر

هذا المبحث يدور حول دراســـة ما سطره العلماء في كتب دلائل النبوة من أساليب البيان، وسوف أتناول في هذا المبحث حديث العلمـــاء عن:

١ ـ التشبيـــه .

٢ ـ الاستعـارة .

٣ ـ الكنايـــة .

وتجدر الإشـــارة إلى أن التصوير في أصل معنـــاه يدل على الشكل والهيئـــة والـــصفة(١)، ومنـــه قوله تعالى:] p q r Z (٢). والتصوير في الكلام يُـــبرز المعنى ويُبيِّن هيئته من خلال إيراد المعنى بأكثر من طريق.

هذا ولقد جـــاءت دراسة علماء كتب دلائل النبوة لأساليب البيـــان تطبيقية على شكل ملحوظات عابرة قد يصحبُها شيء من التنظير الموجز، وذلك على سبيل الاستطراد. وفيما يأتي من صفحات عرض لأساليب هذا المبحث، وِفق رؤية هؤلاء لعلماء.

---

(١) ينظر : لسان العرب : ٨ / ٣٠٣ .

(٢) سورة غافر : آية : ٦٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ ـ التشبيــــه :

عرض علماء كتب دلائل النبــوة أسلوب التشبيه، غير أن عرضهم جــــاء علــى شكل تطبيقات يُذكر من خلالها إشـــارات لهذا الأسلوب كما عند ابن قتيبة، وقد يخصُّونه بالذكر في قسم خاص كما عنـــد الزيدي.

فابن قتيبة قد أغفل التشبيه عندما بدأ يُعدِّد الألوان البلاغية عند العرب، بيد أنه ذكره مع الألوان البلاغية الأخرى في كتابه " تأويل مشكل القرآن "، حيث يقول: ((وللعـــرب المجازات في الكلام، ومعناها: طرق القول ومآخذه، ففيها: الاستعارة، والتمثيـــل، والقلـــب ...)) (١)، فلماذا أغفل ابن قتيبة التشبيه هنا وأثبته في " تأويل مشكل القرآن " ؟!

قد يكون عدم ذكر التشبيه ضمن الألوان البلاغية راجعاً إلى إسقاط الناسخ له أثناء الكتابة، فيكون هذا خطأً منه، وليس بين أيدينا إلا نسخة قديمة لهذا الكتاب، فمن الصعب إثبات مثل هذا أو نفيه. وقد يكون إغفال ابن قتيبة له عن عمد وقصد؛ وذلك لخطورة هذا الفن، لا سيما إذا كان يتحدث عن قضية تشبيه الذات الإلهية، وهو في كتابه هذا يتحـــدث عن أمور تخص العقيدة، فأراد أن يفرد له كتاباً خاصاً فألَّف فيه " الاختلاف في اللفظ والردّ على الجهمية والمشبهة "، وبذلك يكون قد أعطاه مزيداً من العناية والاهتمام.

وإذا كان ابن قتيبة لم يذكر التشبيه ضمن الألوان البلاغية عند العرب، فمن الصعب أن يتركه من دون إشارة له عند حديثه عن آية من آيات القرآن الكريم، يقول ابن قتيبـــة في سيـــاق ردِّه على قوم من أهـــل الزيغ والإلحاد أوتوا طرفاً من البلاغة وحظّـــاً من البيان: ((قالـــــوا في قـــول الله عـــز وجـــل:] وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ Z (٢) ما معنى (كما) هاهنا، و (كما) تأتي لتشبيه شيء بـــشيء، و لم يتعلق في أول الكلام ما يُشبَّه به ما تأخر منه، قالوا: وكذلك قوله في سورة الأنفال وذكـــر المـــؤمنين:] U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a

(١) تأويل مشكل القرآن : ٢٠ .

(٢) سورة الحجر : آية : ٨٩ ــ ٩٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Z b (١) وما الذي يُشبه الكلام الأول من إخراج الله إياه. قالوا: وكـذلك قولـه في سورة البقرة:] وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا © رَسُولًا مِّنكُمْ Z (٢) الجواب: أما قوله عز وجل:] إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ Z (٣) فإن فيه محذوفاً يدل ظاهر الكلام عليه، كأنه قال: أنا النذير المـبين عقوبـة أو عذاباً، مثل ما أنزلنا على المقتسمين، فجعل العقوبة أو العذاب إذ كان الإنذار يدل عليـه، كما قال في موضع آخر:] : ; > = < Z @ ? (٤) ولو أراد منه أن يمثل هذا بذاك لقال: أنا النذير المبين كما أنزلنا على عاد وثمود، بدل: أنا النذير المبين مـن صاعقـة (٥)، كما أنزلنا على عـاد وثمود، ومثل هـذا من المحذوف في كـلام العـرب أكبر من أن يحاط به. وأما قوله في سورة الأنفـال:] [^ _ ` a Z فـإن المسلمين يوم بدر اختلفوا في الأنفال، وحاجوا النبي وجادلوه، وكره كثير منهم ما كان من فعل رسول ﷺ في النَّفل، فأنزل الله تعـالى: ] ! " # $ % & ' ( Z يجعلها لمن يشاء ] * + , - . Z أي فرِّقوهـا بينكم على السـواء، ] 0 1 2 Z فيمـا بعد ] 3 4 5 6 Z (٦)، ووصف المـؤمنين ثم قال: ] [ ^ _ ` a b c d e f g h Z يريـد أن كراهتهم لما فعلتَـه في الغنائم ككراهتهم للخروج معك، كأنه قال: هذا مـن كراهيتـهم

---

(١) سورة الأنفال : آية : ٤ ــ ٥ .

(٢) سورة البقرة : آية : ١٥٠ ــ ١٥١ .

(٣) سورة الحجر : آية : ٨٩ ــ ٩٠ .

(٤) سورة فصلت : آية : ١٣ . يوافق الإمام الشوكاني ما ذهب إليه ابن قتيبة فيقـول: ((﴿ **كَمَـا أَنزَلْنَـا عَلَـى الْمُقْتَسِمِينَ** ﴾ قيل المفعول محذوف، أي مفعول (أنزلنا)، والتقدير: كما أنزلنا على المقتسمين عـذاباً، فيكـون المعنى: إني أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين الذي أنزلناه عليهم، كقوله تعالى: ﴿ **أَنـذَرْتُكُمْ صَاعِقَـةً مِّثْلَ صَاعِقَـةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾)). فتح القدير : ٣ / ١٤٢ ــ ١٤٣ .

(٥) من معاني الصاعقة : العذاب . ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٥٠١ ، ولسان العرب : ٨ / ٢٤٢ .

(٦) سورة الأنفال : آية : ١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كمـــا أخرجك ربك وإيَّاهم وهم كـــارهون، وأمـــا قولـــه:] وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا © رَسُولًا مِّنكُمْ Z فإنـــه أراد: ولأتم نعمـــتي علـــيكم، كإرسالي فيكم رسولاً أنعمت به عليكم، أو كإنعامي عليكم برسول أرسله يبيِّن لكم)) (١).

وعند التأمل في النصِّ السابق يتضح ما يلي:

١ ــ خصص ابن قتيبة هذا النص للحديث عن الحـــذف الـــذي يقـــع في أحـــد طـــرفي التشبيـــه وهو (المشبَّه).

٢ ــ جميع الأمثلـــة التي أوردها هنـــا تشترك في أن المحذوف فيها هو (المـــشبه)، والأداة هي الكاف المتصلـــة بما الموصولة (كما).

٣ ــ هذا النوع من البلاغـــة، وهو حذف أحد طرفي التشبيه يحتاج إلى دقة وتأمل للسياق الوارد فيه، وقد أبدع ابن قتيبة في هـــذا.

٤ ــ يمكن تصنيف الأمثلة التي أوردها ابن قتيبة إلى نوعين: الأول ما كان في الآية ما يـــدل على الكلام المحذوف، وهو (المشبه)، وذلك كالمثال الأول، فالنذير المبين دالة على العقاب والعذاب، والثاني: ما لم يكن في الآية ما يدل على ذلك، وإنما يفهم من سبب النزول وسياق الكلام كما في آية الأنفال.

٥ ــ تناول ابن قتيبة لهذه القضية والتفاته لها ومعالجته إياها بهذا الشكل يدل على فطنتـــه؛ لأن الكلام سيكون استعارة لو لم توجد الأداة، فلما وُجدت تمحض الأسلوب إلى التشبيه، وبالتالي لا بد من تقدير مشبه حتى يستقيم الكلام.

وعند النظر في كتب ابن قتيبة الأخرى، نجد أن التشبيه لم يَحْظَ بعنايته، كما حظيت بعض الفنون البلاغية الأخرى((فلم يَخصُّه بفصل أو باب، بل كان حديثه عنه متفرقـــاً في ثنايا كتبه، حيث كان يعرض له إن ذَكر آية اشتملت على تشبيه، أو بيتاً ذُكِر فيه تـــشبيه، فكان في كلّ ذلك إما أن يذكر التشبيه ويكتفي بذلك، أو يُبين طرفيـــه فقـــط، أو يزيـــد

(١) أعلام رسول الله : ١٤٥ ــ ١٤٦ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

توضيحه ببيان وجه الشبه، وربما استحسن التشبيه أو استقبحه، وعندئذٍ فإما أن يُعلِّل لذلك، أو يتركه من غير تعليل)) (١).

ومما تحسن الإشـــارة إليه، أن ملاحظـــات ابن قتيبة وإشاراته المتفرقة في التـــشبيه، تحتوي على فوائد علميـــة كانت مقدمة جيدة، ومـــادة غزيرة استعـــان بها اللاحقـــون في دراسة التشبيه (٢).

أما الزيدي فقد خصَّ التشبيه بالذكر، وجعله من أقســـام الفصاحة، والملاحـــظ أن الزيدي قد جمع بين الاستعـــارة والتشبيه في هذا القسم، مع أنه قد أفرد الأساليب البلاغيـــة الأخرى في أقسام خاصة، وسبب جمع الزيدي لهمـــا راجـــع إلى القُـــرب بـــين هـــذين الأسلوبين(٣)، وإلى العلاقة الوثيقـــة بينهما، فالأساس الذي تقوم عليه الاستعارة هو التشبيه.

ومع أن الزيدي قد جمع بين الاستعارة والتشبيه في قسم واحد، إلا أنـــه قـــد أدرك الفرق بينهما، فبدأ بتعريف كلٍّ منهما في بداية حديثه. وسأترك الحديث عـــن الاســـتعارة، وأُبيّنها في موضعها إن شاء الله تعالى.

لا يختلف تعريف الزيدي للتشبيه كثيراً عن تعريفـــات البلاغيين، فهو يعرِّفه بقوله: ((التشبيه هو: أن يذكر الشيء باسمه، ويشبهه بغيره)) (٤)، فأساس التشبيه عند الزيدي أن يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معنى يجمعهما ويوصفان بهما. والزيدي يبني تعريفه هـــذا على أساس أن الشيء لا يُشبَّه بنفسه، وهذه نظرة سبقـــه إليهـــا قدامـــــة بـــن جعفـــر (٣٣٧هـــ) حين قرَّر أن((الشيء لا يُشبَّه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ...)) (٥).

وحتى نستطيع أن ندرك جهد الزيدي في التشبيه، لابد من تتبُّع الأمثلة التي أوردها، وهذه الأمثلة يمكن تصنيفها على النحو التالي:

---

(١) البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ٢٠٠ .

(٢) ينظر : المرجع السابق : ٢٠٩ .

(٣) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠١ .

(٤) المصدر السابق : ١٠١ .

(٥) نقد الشعر : قدامة بن جعفر : ١٠٩ ، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ ــ أمثلة يذكر فيها التشبيه من غير تعليق أو توضيح، كقولـه بعـد التعريـف مباشرة((زيد مثل الأسد شجاعة، وكالريح جوداً، وكالبدر حسناً)) (١)، وقوله في موضع آخـر: ((ومـن التـشبيـه قولـه تعـالى: [F G H I J K L Z(٢)))(٣).

٢ ــ أمثلة يذكر فيها التشبيه ويحكم عليه بالحُسن مع بيان وجهه، كقوله: ((ومن التشبيه الواقع قوله عز وجل: [F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X Z (٤) لما كانت أعمالهم محبطة لا نفع فيها في الآخرة، شبهها بالسَّراب الذي لا نفع فيه، ولأنه مما يظن الناظر أنه ماء، وكـذلك الكافر لما يظن أن له نفعاً في عمله، شبهه أيضاً به، فهذان وجهان من التشبيه، وفيه تـشبيه ثالث، وهو انكشاف حال كل واحد منهما على أنه لا نفع فيه لراجيه، وفيه تشبيه آخـر، وهو تشبيه الكافر بالظمآن، وتشبيه خيبته بخيبته عند شدة حاجتـه إليه، وقوة تعويله عليه، فقد جمعت الآيـة هذه الوجوه من التشبيهات، مع جزالة اللفظ، وحـسن المعـنى)) (٥)، وواضح أن استحسان الزيدي للتشبيه في هذه الآية، كان بسبب اجتماع عـدة تـشبيهات فيها، مع جزالة اللفظ وحسن المعنى. كما استحسن بيت امرئ القيس لذات السبب، فقال: ((وقد عُدَّ من محاسن امرئ القيس: أنه جمع بين تشبيهين في بيت واحد حيث يقول:

كأنَّ قُلُوبَ الَّطيرِ رطْباً ويابِساً
لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشفُ البالي(٦))) (٧).

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠١ .
(٢) سورة يونس : آية : ٢٧ .
(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٤ .
(٤) سورة النور : آية : ٣٩ .
(٥) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٣ ــ ١٠٤ .
(٦) البيت من (الطويل) ينظر : ديوان امرئ القيس : ٣٨ .
(٧) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد سبقـــه ابن قتيبة بذكر هذا المثـــال، وزاد عليـــه بتوضيح التشبيهين وطـــرفي كلٍّ منهمـــا(١).

وقد يشير الزيدي في مواضع أخرى إلى آيات متتالية تحكي معنى واحداً، فيبـــيِّن أنَّ التشبيه فيها واقع موقعه لحسنه وشرف موضعه، وأن هذه الآيات جمعت أنواع الفـــصاحة، كالجزالة في اللفظ مع التشبيهات الواقعة (٢).

٣ ــ أمثلة يذكر فيها التشبيه ويحكم عليه بالحُسن، مع بيان طرفي التـــشبيه ووجـــه الشبه دون ذكر الأداة، ومن ذلك توضيـــحه التشبيه في قولـــه تعالى:] M N O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] Z (٣) يقـــول الزيدي: ((فشبَّه ــ عز وجل ــ من أنفقوا ابتغاء لوجه الله، وطلباً لثوابه ...، بما يحصل لهم من الربح بحبـــة)) (٤).

٤ ــ أمثلـــة يذكر فيها التشبيه ويكتفي بإصدار الحكم عليه بالحُـــسن، دون بيـــان لوجهه، ومن ذلك قوله: ((ومن التشبيه الحسن قوله عز وجل:] وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا ´ μ Z (٥))) (٦).

ومما يحسن التنبيه إليه أن الزيدي لم يُفرِّق بين التشبيه والتمثيل، فهما عنده بمعنى واحد، ولعل ذلك راجع إلى نظرته للمعنى اللغوي للتشبيه، كما هي حال كثير من العلمـــاء في العـــصور الأولى، إلى أن جاء عبدالقاهر الجرجـــاني فقرَّر أن التمثيل ضربٌ من ضـــروب التـــشبيه، وأن((التشبيه عام، والتمثيل أخصّ منه، فكل تمثيلٍ تشبيهٌ، وليس كلّ تشبيهٍ تمثيلاً)) (٧)، أما

---

(١) ينظر : عيون الأخبار : ابن قتيبة : ٢ / ١٨٧ ، تحقيق : يوســـف الطويـــل ، دار الكتـــب العلميـــة ، ط ٣ ، ١٤٢٤هـــ.

(٢) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠١ ــ ١٠٢ .

(٣) سورة البقرة : آية : ٢٦١ .

(٤) المصدر السابق : ١٠٢ .

(٥) سورة الإنسان : آية : ١٩ .

(٦) المصدر السابق : ١٠٤ .

(٧) أسرار البلاغة : ٩٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ابن الأثير فيخالف عبدالقاهر في هذه النظرة، ويُنكر على علماء البيان حين ((فرَّقـوا بـين التشبيه والتمثيل، وجعلوا لهذا باباً مفرداً ولهذا باباً مفرداً وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع، يقال: شبهت هذا الشيء بهـذا الشيء، كما يقـال: مثَّلته به، ومـا أعلـم كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه)) (١).

ومن خلال ما سبق يتبيَّن أن العلماء في كتب دلائل النبوة لم يعتنوا بالتشبيه عنايـة كبيرة، فابن قتيبة لم يخصّه بالذكر كما فعل في الأساليب الأخرى، بل عَرَض له من خـلال آيات اشتملت على بعض التشبيهات. وأما الزيدي فهو وإنْ خصَّ التشبيه بالـذكر، وقـام بتعريفه وتوضيح التشبيه في شواهده، إلا أنَّ دراسته له جاءت بشكل عام، حيث خلط معه أسلوب الاستعـارة، فقد يذكر شاهداً للتشبيه، ثم آخر للاستعارة، ثم يعود للتشبيه، وقـد يجمع بينهما في شاهد واحد، وهذا مما يُشتت ذهن القارئ. ومع هذا فنظراتهم في التشبيه لم تَخْل من فوائـد علميـة جيدة أسهمت في إظهار علوّ بلاغة القرآن وإعجازه، وهذا مـن أهم الغايات التي من أجلها ألَّف هؤلاء العلماء كتبهم.

هذا وقد اعتنى البلاغيون بالتشبيه، وتوسعوا في بحثـه وتقسيمه والتمثيل له، وكـان أبو هلال العسكري من أوائل البلاغيين الذين بحثوا في هذا الفن وأبدعوا فيه، إلى أن جـاء عبدالقاهر الجرجاني فبلغ في ذلك مبلغاً عظيماً، وتتابع العلماء بعـده يظهـرون محاسـنه، ويشرحون بدائعه.

---

(١) المثل السائر : ٢ / ١٢٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ ـ الاستعـــارة :

قبل البدء في دراسة هذا الأسلوب عند علماء كتب دلائل النبوة، لابدَّ من الإشـــارة إلى المجاز عند ابن قتيبة، فمن المعلوم أن للمجاز في حديث ابن قتيبة شـــأناً كبيراً، فقد كان سبَّاقاً إلى دراسة المجاز في القرآن الكريم، وذلك في كتابه " تأويل مشكل القرآن "، فقد وجد منه اهتماماً كبيراً وعناية خاصة. وفي كتابه الذي تناول فيه دلائل نبوة النبي ﷺ عمد ابـــن قتيبة إلى تناول المجاز أيضاً، وكان يهدف ـــ في الكتابين ـــ إلى ذكر بعض آيـــات القـــرآن الكريم، ومن ثمَّ يشرح في ضوئهـــا ما ذهب إليه الطاعنون في القرآن من القـــول بالحقيقـــة دون المجاز، ليعود هـــو بذلك إلى إثبات المجـــاز فينفي ما قالوه جملـــة وتفصيلا، مستشهداً على ما يراه بنصوص من الشعر العربي؛ ليقيم الدليـــل على ما يقـــول، ويـــسقط دعـــوى الطاعنين، يقول ابن قتيبة في ذلك: ((فأما الأشياء التي طُعن بها على القرآن، فسأذكر منـــها عشرة أحرف، وأُبيِّن مجازها لتعرفها ...)) (١). وبما أن المجاز عند ابن قتيبة يشمل((طـــرق القول ومآخذه)) (٢)، فقد شملت صور المجاز عنده كثيراً من الأساليب البلاغيـــة(٣)، وقـــد تناولت كل أسلوب من هذه الأساليب بدراسة خاصة، وقد بدا لي خلال ذلك أنه لم يعرض في كتابه الذي ألَّفه في دلائل النبوة إلى صور قرآنية مما يدخل عند المتأخرين في المجاز المرسل والعقلي.

فإذا انتقلت إلى الاستعارة عند ابن قتيبة، وقلَّبت صفحات كتابه الذي ألَّفه في دلائل النبوة، أرى اختلافاً بين عمله في الاستعارة في هذا الكتاب، وبين رؤيته الشاملة للاستعارة في " تأويل مشكل القرآن "، فهو في كتابه الذي ألَّفه في دلائل النبوة لم يُبد أي اهتمام بها، في حين نجده في " تأويل مشكل القرآن " يُبدي اهتماماً خاصاً بها، ومن مظـــاهر العنايـــة أو عدمها ما يلي:

---

(١) أعلام رسول الله : ١٤٥ .

(٢) تأويل مشكل القرآن : ٢٠ .

(٣) ينظر : أعلام رسول الله : ١٤٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ـــ لم يُقدّم الاستعارة على غيرها من طرق الكلام في كتابه الذي ألَّفـــه في دلائـــل النبوة، في حين قدمها على غيرها من الألوان البلاغية، وجعلها أول أبواب المجاز في كتابه " تأويل مشكل القرآن "، معلِّلاً ذلك بأن أكثر المجاز يقع في باب الاستعارة (١).

ـــ لم يورد ابن قتيبة شاهداً قرآنياً واحداً أو مثالاً على الاستعارة في كتابه الذي ألَّفه في دلائل النبوة، بل اكتفى ببيان أن الاستعارة من كلام العرب، وأن لها شواهد في كتـــاب الله تعالى، أما في كتابه " تأويل مشكل القرآن " فقد أفاض في ذكر الشواهد القرآنية والأمثلة الشعرية((حتى تميَّز عن غيره بذكره لأمثلة كثيرة على الاستعارة من القرآن والشعر وكـــلام العرب، استغرق ذلك ما يقرب من خمسين صفحة، وكان في بعض الأمثلة يُـــبين المـــستعار منه، والمستعار له، ووجه الشبه بينهما، وكان إذا ذكر المثال الذي يحتوي على أكثـــر مـــن استعارة يُبينهما جميعاً)) (٢)، وهذا ما لم يفعله ابن قتيبة في كتابه الذي ألَّفه في دلائل النبوة.

ولعلَّ لابن قتيبة عذراً في ذلك، فقد ألزم نفسه بذكر عشرة أحرف فقط، يُبين فيها طعن الملاحدة على القرآن، فلم يتمكَّن من احتواء جميع الألوان البلاغية التي أشار إليهـــا في بداية حديثه، كراهية منه أن يتعلَّق القلب بهذه المسائل في هذا الكتاب، وهو قد قام بتفصيلها في كتابيه: " تأويل مشكل القرآن " و " المسائل والأجوبة "، يقول ابن قتيبـــة في معـــرض حديثه عن طعن الملاحدة في القرآن: ((واتبعوا متشابهه بأفهام كليلة وأبصار عليلة، وفطر في اللغة منحولة، فنسبوا شيئاً منه بحيلهم إلى اللحن وإلى التناقض وإلى الاســـتحالة وإلى ســـوء النظم، وقد قابلت ذلك بالاحتجاج عليهم فيه وتبيين المخارج منه، في كتـــابي المؤلـــف في تأويل المشكل من القرآن، وكتابي المنسوب إلى المسائل، وطال أن أعيد ذلك في هذا الكتاب ورأيته يخرجه عن فنه، فاقتصرت في طيّـــه على حروف متيسرة معـــدودة ابتهلتـــها علـــى غلطهم وسوء أفهامهم، وكرهت أن ينطوي ذلك كلـــه عنك فيتعلق قلبك إلى أن يتيـــسر لك النظر في ذينك الكتابين)) (٣).

---

(١) ينظر: تأويل مشكل القرآن : ١٣٤ .

(٢) البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ٢٥٧ .

(٣) أعلام رسول الله : ١٤٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الزيدي فقد تناول الاستعارة، وجعلها من أقسام الفصاحة، وقد بـــدأ حديثـــه بالتعريف لها فقال: ((الاستعارة أن تنقل إليه اسم الشيء المشبه به)) (١)، وهذا التعريـــف قاصر جداً؛ لاشتماله على الاستعارة التصريحية فقط، لكنه قد يتناسب مع المراحـــل الأولى لنشأة البلاغة، ويتسق مع التحديد المبكر لبعض مفاهيم مصطلحاتها.

وعندما يَعرض الزيدي لشواهد الاستعارة في القرآن الكريم، فإنه أحياناً يوضـــحها ويُبينها، وأحياناً يكتفي بوصفهـــا استعارة حسنـــة، فمن الشواهد التي وضَّحها قوله تعالى: [5 6 7 Z (٢) يقول الزيدي: ((فاستعار للبياض اسم الاشتعال مصبوباً في قالبه، مقصوراً عليه، وهذا من الفصاحة البالغة)) (٣)، ففي المثال السابق بيَّن الزيدي طـــرفي الاستعارة، فاللفظ المستعار هو الاشتعال، والمستعار له بياض شعر الرأس، وهـــذه اســـتعارة مكنية، فقد شبَّه الشيب بشُواظ النـــار، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو " اشتعل ".

ومن الشواهد التي علَّق عليها الزيدي قوله عز وجل: [v w x y z } Z (٤)، ((أي تترخصوا، فسمى الترخُّص إغماضاً؛ لأن الإنسان يصرف بصره عما لا يحب أن يراه ويقف على حقيقته)) (٥)، وقد سبقه ابن قتيبة بهـــذا التوضـــيح (٦)، وقـــال الراغب: استعير الإغماض للتغافل والتساهل (٧).

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠١ .
(٢) سورة مريم : آية : ٤ .
(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٣ .
(٤) سورة البقرة : آية : ٢٦٧ .
(٥) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٥ .
(٦) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ١٤١ .
(٧) ينظر : المفردات في غريب القرآن : ٣٦٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الشواهد التي اكتفى الزيدي بوصفها بالاستعـارة الحـسنة، قولـه تعـالى:] وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ Z (١)، وقوله تعالى:] W V U T S X Z Y (٢)، والمثالان السابقان لم يوضحهما الزيدي، لكنه عقَّب عليهما بقولـه: ((وأخذ هذا المعنى الكميت فقال:

خَفضتُ لهم منِّي جناحَيْ مَودَّةٍ إلى كنفٍ عطفاهُ أهلٌ ومرحبُ (٣)

فأخذ اللفظ والمعنى، ولكن لم يُرزق تلك العذوبة الصافية، وذلك الماء المتسلـسل، على أن هذه اللفظة في غرة البيت ...)) (٤).

وعند التأمل في الأمثلة التي ساقها الزيدي للاستعارة، نجده يخلط في بعـضها بـين الاستعارة والتشبيه البليغ، يقول الزيدي عند قولـه تعـالى:] 3 4 5 6 7 8 9 Z (٥)، ((استعار لهم ــ عز وجل ــ اسم الأصم والأبكم، وضمَّ الأعمـى، فقـال:] 3 4 5 6 7 8 9 Z فهم في إعراضهم عن استماع الحق بمنـزلة الـصم الذين لا يسمعون، وفي تركهم النطق بالحق على ما أمرهم الله ــ عز وجل ــ ودعاهم إليه بمنـزلة الخُرس الذين لا ينطقون)) (٦)، ((والذي يراه جمهور المحققين أنه من التشبيه بغـير أداة؛ لأن ذكر طرفي التشبيه حقيقةً أو حكماً مانعٌ عن الاسـتعارة، صـحيح أن المـذكور صراحةً هو المشبهُ به، و لم يذكر المشبه، ومن هنا جاءت شبهة كونها استعارة، ولكن المقدَّر

---

(١) سورة الإسراء : آية : ٢٤ .

(٢) سورة الشعراء : آية : ٢١٥ .

(٣) البيت من (الطويل) ينظر : القصائد الهاشميات لشاعر زمانه منقبة بني أسد : الكميت بن زيد الأسـدي : ١٦، اعتنى بتصحيحها وضبطها : محمد شاكر الخياط ، مطبعة الموسوعات ، مـصر ، وخزانـة الأدب : ٤ / ٢٩٠ ، ومعاهد التنصيص : ٣ / ٩٥ .

(٤) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٣ .

(٥) سورة البقرة : آية : ١٨ .

(٦) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كالمذكور، ولعل مجيء التشبيه بهذه الصورة أبلغ في وصف أولئك المنـــافقين والكـــافرين، واتصافهم بتلك الصفات الثلاث، وكأنهم هم الصم والبكم والعمي))[1].

كما يخلط بينهما في شاهد آخر، يقول الزيدي:((ومن الاستعارة قوله عز وجـــل:] نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ ´ µ ¶ ¸ شِئْتُمْ Z [2] فسماهنَّ حرثاً؛ لأن النَّسل يخرج منهن، كما يخرج الزرع من الأرض)) [3]، وهذه الآية ليس فيها استعارة؛ لأن الاستعارة قائمـــة علـــى حذف أحد طرفي التشبيه، والطرفان مذكوران في الآية، و لم يكن هذا الخلط عند الزيـــدي وحده، بل سبقه بذلك ابن قتيبة [4] وربما غيره، ولعل هذا يشير إلى أنَّ بعض المـــصطلحات البلاغية في ذلك الوقت المبكر لم يكتمل لمفهومها تحديدٌ واضحٌ له، أو لم يُتفق عليه ويُتعارف على اصطلاحه، ولربما كان بعضهم لا يرى اشتراط حذف أحد الطرفين في الاستعارة أصلا، وهذا ما يفسر تصريح الزيدي وغيره لأمثلة التشبيه البليغ بأنها استعارة.

ومن خلال ما سبق يتبيَّن أن العلماء في كتب دلائل النبوة أسهموا في ذكر هذا الفنِّ البلاغي، والتعريف به، فابن قتيبة عـــدَّه واحداً من أساليب كلام العرب. وأما الزيدي فقد خصَّ الاستعارة بالذكر، وقام بتعريفها واستثمار شواهدها في بيان إعجاز بلاغة القـــرآن، وهذا من أسمى الغايات من بحث هذا الفن في كتابه.

---

(١) من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم : د. محمد بن علي الصامل : ١١٧ ، دار إشبيليا للنـــشر والتوزيـــع ، الرياض ، ط ١ ، ١٤٢٢هـــ.

(٢) سورة البقرة : آية : ٢٢٣ .

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٠٤ .

(٤) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ١٤١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والحقُّ أن العلماء قد تناولوا الاستعارة بالدراسة والتحليل منذ وقت مبكِّر، فابن المعتز (٢٩٦ هـ) تناول هذا الأسلوب بالتعريف وذكر الأمثلة الكثيرة(١)، وجعله أول أبـواب كتابه " البديع "، والرماني (٣٨٦ هـ) خصَّه بباب من أبواب البلاغة العشرة(٢)، وأبـو هلال العسكري (٣٩٥ هـ) الذي أولى هذا الأسلوب عناية كبيرة(٣).

٣ ـ الكنـاية :

ألمح علماء كتب دلائل النبوة إلى أسلوب الكناية، وجاء حديثهم عنـه مفرَّقـاً في كتبهم، حيث جاءت إشاراتهم إليه عَرَضاً على سبيل الاستطراد.

فقد أشار ابن قتيبة إلى الكناية من خلال حديثه عن استقراء العرب للقرآن وتعجبهم من ألفاظه البارعة، يقول ابن قتيبة: ((ومما يدل على استقرائهم القـرآن، وتعجبـهم مـن ألفاظه البارعة ومعانيه اللطيفة، نسبتهم إيَّاه بالسحر، يقول الله عز وجـل:] 0 1 2 Z 9 8 7 6 5 4 3 (٤)، كما قال الأولون للمسيح حين آتـاهم بالآيـات المعجزة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه هذا سحر مبين، ولهذا قال لنبيِّـه:] r s t u

(١) ينظر : البديع : ١٥ ــ ٣٥ .

(٢) ينظر : النكت في إعجاز القرآن ، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ٨٥ ــ ٩٤ .

(٣) ينظر : كتاب الصناعتين : أبو هلال العسكري : ٢٦٨ ــ ٣٠٦ ، تحقيق : علي محمد البجـاوي ومحمـد أبـو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط ١ ، ١٣٧١هـ.

(٤) سورة الأحقاف : آية : ٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

Z { z y x w v [1]. والعرب تُكنِّي بالسحر عما لطف ودقَّ ما اشـــتملت بـــه القلوب، وبلغت به الحاجة، وعظم به الصغير، وصغر به العظيم؛ ولذلك قالوا: إن من البيان لسحرا، وقالوا: سحرني فلان بكلامه، أي خدعني، وما فلان إلا ساحر، ولو كانوا يقدرون على مثله ما شبهوه بالسحر)) [2].

وقد يُطلق ابن قتيبة على الكنايـــة " الإيماء "، فيقول: ((وكـــلام العـــرب وحـــي وإيماء ...)) [3]، وهذا ما فعله في كتابه " تأويل مختلف الحديث " حين أشار إلى الإيماء، ثم أورد بعد ذلك أمثلة تصلح للكناية [4].

ولئن كان ابن قتيبة اكتفى بالإشارة إلى الكناية في كتابه الذي ألَّفه في دلائل النبوة، إلا أنه اعتنى بهذا الأسلوب في كتابه " تأويل مشكل القرآن "، حيث أفرد له بابـــاً خاصـــاً سماه " باب الكناية والتعريض " ذكر فيه أنواع الكناية [5]، واستطاع من خلاله أن يـــضع مادة جيدة بين يدي العلماء من بعده، حيث قاموا بتنظيمها وتعريفها [6].

كما تحدث الزيدي عن الكناية، وسمَّاها " التلويح "، وقد تناولها في معرِض حديثـــه عن المعارضة المخفية لابن المقفع، حيث يقول: ((ولعمري إن الفصيح قـــد يعـــدِل عـــن التصريح إلى التلويح، لكن على وجهٍ يكون أبلغ من التصريح، وبألفاظ تكون أجـــزل مـــن ألفاظ التصريح، ويكون ذلك لغرض صحيح)) [7]، فالزيدي يريد أن يُقرِّر بـــأن التلـــويح مظهر من مظاهر البلاغة، وغاية لا يصل إليها إلا من لَطُف طبعه وصَفَت قريحتـــه، وابـــن المقفع ليس لكلامه من الحسنات حين لوَّح بمعارضته للقرآن الكريم. ثم ذكر الزيدي أمثلـــة

---

(١) سورة فصلت : آية : ٤٣ .

(٢) أعلام رسول الله : ١٤٢ .

(٣) المصدر السابق : ١٤٤ .

(٤) ينظر : تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة : ١٦٣ ، تحقيق : محمد زهـــري النجـــار ، دار الجيـــل ، بـــيروت ، ١٣٩٣هـــ.

(٥) ينظر : تأويل مشكل القرآن : ٢٥٦ ـــ ٢٧٤ .

(٦) ينظر : البحث البلاغي عند ابن قتيبة : ٢٦٥ .

(٧) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على التلويح من القرآن، ومن ذلك قولـــه تعالى:] F G H I J KL M N O Z (١)، ويُعلق الزيدي على هذه الآية بقوله: ((أراد أني على الهدى، وأنـــت في ضلال مبين، فعدل عن ذلك إلى الإيجاز والتلويح بلفظ هو أشرف وأجزل، وكان الغـــرض في هذا: بيان ذلك بما يكون أجمل، والتنبيه عليه بما يكون ألطف)) (٢)، وقد أشار إلى هـــذا المعنى جمع من المفسرين (٣). ومن الأمثلة التي ذكرها الزيدي قوله تعـــالى:] b c d e f g h i Z (٤)، ويُعقِّب عليهـــا بقولـــــه: ((فعاتبـــهم بألطف عتاب، وجعل خطابهم أجمل خطاب، ثم عقَّبه بقولـــه:] p q r Z فكان عجز الكلام مطابقاً لصدره، واستمر الغرض فيهما على منهاج واحد)) (٥) فالزيدي يشير في هذه الآية إلى ما عوتب به الرماة الذين خالفوا أمر الرسول ﷺ يوم أحد، وذلـــك حين أمرهم أن يثبتوا عند الجبل ولا يبرحوا مكانهم، سواء كانت النُّـــصرة للمـــسلمين أو عليهم، لكنَّ هذا العتاب جاء بعبارات لطيفة تناسب نَدَمهم على فعلتهم، ولهـــذا خـــتم الله الآية بالعفو عنهم. وإلى هذا المعنى أشار الفخر الرازي (٦).

كانت تلك هي إشارة الزيدي لأسلوب الكناية، ولعل إشـــارته في هـــذا الموضـــع كانت هي السبب في إغفاله الحديث عن هذا الأسلوب عندما فـــصَّل القـــول في أقـــسام الفصاحة.

هذا وقد تحدث السكاكي عن التلويح في الكناية فقال: ((متى كانـــت الكنايـــــة عُرضية على ما عرفت، كـــان إطلاق اسم التعريض عليهـــا مناسبـــاً، وإذا لم تكن كذلك نُظِرَ، فإن كانت ذات مسافة بينها وبين المكنِّ عنه متباعدة لتوسُّط لوازم كمـــا في " كـــثير

(١) سورة سبأ : آية : ٢٤ .
(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤٢ .
(٣) ينظر : إرشاد العقل السليم : ٧ / ١٣٢ ، وفتح القدير : ٤ / ٣٢٥ ، وروح المعاني : ٢٢ / ٤٢٨ ، والتحريـــر والتنوير : ٢٢ / ٥٨ .
(٤) سورة آل عمران : آية : ١٥٢ .
(٥) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ٤٢ .
(٦) ينظر : مفاتيح الغيب : ٩ / ٢٩ ــ ٣١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرماد " وأشباهه، كان إطلاق اسم التلويح عليها مناسباً؛ لأن التلويح هو أن تـشير علـى غيرك عن بُعد)) (١).

كما ألمح الماوردي إلى ضرب من ضروب الكناية وهو الرَّمز، وذلك عنـد حديثـه عن كثرة معاني القرآن التي لا يجمعها كلام البشر، فقد بيَّن الماوردي بأن الرمز موجـود في القرآن الكريم، وأنه ليس بمذموم (٢)، ثم ختم الحديث بتعريفه فقال: ((والرَّمزُ مـا خَفـي معناه)) (٣)، و لم يذكر أمثلة له.

وقد أشار السكاكي إلى الخفاء في الرمز عند حديثه عـن الكنايـة فقـال: ((وإن كانت ذات مسافـة قريبة، مع نوع من الخفاء، كنحو " عـريض القفـا " و " عـريض الوسادة "، كان إطلاق اسم " الرمز " عليها مناسباً؛ لأن الرمز هو: أن تـشير إلى قريـب منك على سبيل الخفية)) (٤).

ومن خلال ما سبق يتبين تواضع جهد علماء كتب دلائل النبوة في دراستهم لهـذا الأسلوب، ولعل أفضلهم جهدا ما قام به الزيدي، وذلك حين قدَّم له بتقديم لطيف، معقِّبـا بشواهد له من القرآن الكريم مع بيانها وتوضيحها. ومع تواضع هذا الجهد إلا أن له قيمـة كبيرة في كتبهم، حيث إن ذكر هذا الفن ـــ بحدِّ ذاته ـــ في تلك الكتب، التي كان أصـل وضعها بيان إثبات نبوة النبي ﷺ، لهو أكبر دليل على اهتمامهم بإظهار إعجاز بلاغة القرآن ونظمـه، كأحد أدلة إثبات النبوة المحمدية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الأسلوب قد لَقي عناية من البلاغيين منذ وقت مبكِّـر، ومن ذلك ما أشرت إليه من اهتمام ابن قتيبة به في كتابه " تأويل مشكل القرآن "، كمـا كان لابن المعتز جهد واضح في هذا الأسلوب، وذلك من خلال إيراده كثيراً مـن الأمثلـة عليه، ما عدا القرآن الكريم الذي عَدَل عن التطرُّق لكناياته، وذلك على غير مـا عهـدناه

(١) مفتاح العلوم : ٤١١ .
(٢) ينظر : أعلام النبوة : ١٣٤ .
(٣) المصدر السابق : ١٣٤ .
(٤) مفتاح العلوم : ٤١١ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لديه في أبواب مذهب البديع (١)، كما حظيت الكنايـة بعنايـة ابـن سـنان الخفـاجي (٤٦٦هـ) وقد تناولها تحت ما أسماه باب " الكلام في الألفاظ المؤلفة " (٢)، كما عَـرض عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) للكناية في مؤلفيـه " دلائل الإعجـاز " و " أسـرار البلاغة "((وكان حديثه في أحدهما مكمِّلاً للآخر، وبحثه بعيداً عن التقليد، نازعاً فيـه إلى التجديد)) (٣).

(١) ينظر : البديع : ٨٣ ــ ٨٥ .

(٢) ينظر : سر الفصاحة : ١٥٥ ــ ٢٢٥ .

(٣) الكناية في البلاغة العربية : د. بشير كحيل : ٩٤ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المبحث الرابع : التحسين

عرض علماء كتب دلائل النبوة ألوان البديع عرضاً يسيراً، حتى وإنْ خصَّ أحدهم بعض ألوانها بالذكر، وقد يكون هذا راجعاً إلى أهمية مباحث علمي المعاني والبيان، وأنها هي التي يَرجع شأن البلاغة إليها كثيرا.

هذا وسوف أتنـــاول في هذا المبحث ما سطره العلماء في كتب دلائل النبوة من أساليب البديع، وقد قسمت المبحث قسمين:

١ ـ المحسنات المعنوية : وفيها تناولت :

أ ـ الطبـــــاق .

ب ـ التـــوريـــة .

٢ ـ المحسنات اللفظيـــة : وفيها تناولت :

أ ـ الجنـــــاس .

ب ـ الفاصلـــة .

ج ـ الاقتباس .

وتجدر الإشارة إلى أن الزيدي هو الذي انفرد بتناول هذه المحسنات كلهـــا باستثناء فنّ "التورية" الذي اكتفى ابن قتيبة بتناوله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١ ـ المحسنات المعنوية :

أ ـ الطبـــاق :

تناول الزيدي أسلوب الطباق، وسمَّاه " المطابق "، وقد نبَّه على أن هـــذه التـــسمية هي تسمية أكثر أهل الصَّنعة، وبدأ حديثه ببيان تعريفه، حيـــث يقـــول: ((وهـــو ـــ أي المطابق ـــ إيراد لفظتين [تفيد] (١) كل واحدة منهما ضدّ مـــا تفيـــده الأخـــرى)) (٢)، ويبدو أن الزيدي قد استفاد من العلماء قبله(٣) في هذا الباب، وذلك ظـــاهر مـــن خـــلال المصطلح والتعريف. وقد أورد الزيدي كثيراً من الشواهد القرآنية على هـــذا الأســـلوب، وكلها تدخل تحت ما سماه البلاغيون " طباق الإيجاب "، فمن الأمثلة التي أوردهـــا قولـــه تعالى:] إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ Z (٤)، وقولـــه تعـــالى:] يَوْمَ تَبْيَضُّ © وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ Z (٥)، وقوله تعالى:] g h i j k l Z (٦).

والملاحظ أن بعض الأمثلة التي أوردها الزيدي، تدخل فيما سُـــمِّي لـــدى بعـــض المتأخرين بالمقابلة، وهي أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو بمعانٍ متوافقة ثم بمـــا يقابلـــها علـــى الترتيب، كقوله تعالى:] Z [\ ] ^ _ ` a b c Z (٧)، فقابل الـــبرَّ والنعيم، بالفجور والجحيم، وقوله تعـــالى:] هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ´ µ ¶ Z (٨)، فقابـــل العذب والفرات بالملح والأُجاج (٩).

---

(١) جاء في الأصل [يفيد] والصواب [تفيد] .
(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٢ .
(٣) ينظر : البديع : ٤٨ ، وكتاب الصناعتين : ٣٠٧ .
(٤) سورة هود : آية : ١١٤ .
(٥) سورة آل عمران : آية : ١٠٦ .
(٦) سورة فاطر : آية : ٨ .
(٧) سورة الانفطار : آية : ١٣ ـــ ١٤ .
(٨) سورة الفرقان : آية : ٥٣ .
(٩) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد نبَّه الزيدي على أن هذا النوع في القرآن كثير؛ ((لأن كثرته لا توجب للكلام نُبواً عن السمع، ولا تنافراً، كما يوجبه التجنيس)) (١) .

ولا عجب أن يلاحظ الزيدي أن هذا الفن البلاغي قد كثر كثرة لافتة في القرآن الكريم، حيث يرد في القرآن كثير من المواضع فيها موازنة بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والخير والشر، وغير ذلك مما يتجلى به صدق الدعوة الإسلامية وبطلان سواها، وكما قيل: وبضدها تتميز الأشياء.

ب ـ التورية :

لم يُصرح ابن قتيبة بمصطلح التورية في كتابه الذي ألفه في دلائل النبوة، بل ذكر شواهد تدل عليه، ولعل عدم عناية المتقدمين بهذا الأسلوب كانت هي السبب في عدم تحديد مصطلح محدَّد لفنٍّ معين، وقد أشار ابن حِجة الحموي (٨٣٧ هـ) إلى سبب ذلك بقوله: ((لأن هذا النوع ــ أعني التورية ــ ما تنبَّه لمحاسنه إلا من تأخر من حُذَّاق الشعراء وأعيان الكتّاب، ولعمري إنهم بذلوا الطاقة في حُسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب، فإن التورية من أغلى فنون الأدب وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة، وما أبرز شمسها نقيةً من غيوم النقد إلا كلٌّ ضامرٍ مهزول، ولا أحرز قصبات سبقها من المتأخرين غير الفحول)) (٢).

وقد رأى أحد الباحثين(٣) بأن ابن قتيبة يفهم التورية((على أنها لفظ يتفق ظاهره مع مراد السامع، ولكن المتكلم ينوي به شيئاً آخر يتفق مع رغبته هو وهواه، ويلجأ إلى ذلك لداعٍ من الدواعي، كالتخلص من مأزق، أو الهروب من موقف)) (٤). وقد ذكر

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٢ .

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب : ابن حجة الحموي : ٣ / ١٨٥ ، دراسة وتحقيق : د. كوكب دياب ، دار صادر، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١ هـ.

(٣) هو د. عبدالقادر حسين .

(٤) أثر النحاة في البحث البلاغي : ١٩٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ابن قتيبة مثالاً يصلح للتورية، وهو يدل على أنه يرى إمكانية ورود اللفظ بمعنيين، أحدهما قريب، والآخر بعيد هو مقصود القائل.

يقول ابن قتيبة عند قوله تعالى:] 9 : ; < = > ? @ A B C D F G H I J Z[1] ((فكيف أعجب هذا الزرع الكافرين دون المؤمنين؟ والزرع الحَسن قد يُعجب الكافرين والمؤمنين، ولا ينقص المؤمنين إن أعجبهم، و لم يُرد بالكُفَّار ما ذهبوا إليه، وإنما أراد بالكُفار الزُّرَّاع، واحدهم كافر، وسمي كافراً؛ لأنه إذا ألقى البذر في الأرض كَفَرَهُ أي غطّاه، وكل شيء غطَّيتَه فقد كَفرتَه، ومنه قيل لليل كافر؛ لأنه يستر بظلمته كل شيء، قال الشاعر:

* في ليلةٍ كَفَرَ النُّجومَ غَمَامُها * [2]

أي غطاها، وهذا مثل قوله في موضع آخر:] M N Z[3])) [4]، وقد صرَّح ابن عاشور بإطلاق التورية على لفظ " الكفار " في هذه الآية، حيث يقول: ((وإنما أُوثر هذا الاسم ــ أي الكفار ــ هنا، وقد قال تعالى في سورة الفتح:] M N Z قصداً هنا للتورية بالكفار، الذين هم الكافرون بالله؛ لأنهم أشد إعجاباً بمتاع الدنيا؛ إذ لا أمل لهم في شيء بعده)) [5].

---

(١) سورة الحديد : آية : ٢٠ .

(٢) البيت من (الكامل) ، وهو للبيد ، وصدره : * يَعلُو طريقةَ مَتْنِها متَواتِراً * ينظر : شرح ديوان لبيد بن ربيعة: ٣٠٩ ، حققه وقدم له : د. إحسان عباس ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٦٢م.

(٣) سورة الفتح : آية : ٢٩ .

(٤) أعلام رسول الله : ١٤٦ .

(٥) التحرير والتنوير : ٢٧ / ٣٦٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢ ـ المحسنات اللفظية :

أ ـ الجنـــــاس :

تناول الزيدي فنَّ الجناس، وسماه " التجنيس "، وقد بدأ الحديث عنه بتعريفه فقـــال: ((هو أن يُجمع بين كلمتين التقتا من حروف متجانسة)) (١)، والذي يَظهر لي أن الزيدي قد استفاد من ابن المعتز، فقد اتفقا في التسمية، وتشابها في التعريف (٢). وقد ساق الزيـــدي كثيراً من الشواهد القرآنية على الجناس، منها قوله تعـــالى:] ï مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ô ﴿٤٤﴾ Z (٣)، وقوله: [" # $ Z (٤)، وقولـــه: [u v w x y z Z (٥) وغيرها. واللافت للانتباه أن جميع الشواهد التي أوردها الزيدي تـــدخل في ما ألحقه البلاغيون بالجناس وهو ما يسمى بـــ " جناس الاشـــتقاق"، وهـــو أن يرجـــع اللفظان إلى أصل واحد في اللغة (٦). ولا غَرو أن يلفت هذا النوع نظرة الزيـــدي، فقـــد كثرت الإشارة إليه من قِبل العلماء قبله (٧)، الذين تحدثوا عن الجناس وفطنوا لشواهده.

وقد بيَّن الزيدي بأن هذا الباب لم يكثر في القـــرآن الكـــريم وأشـــعار المتقـــدمين والمطبوعين من المتأخرين؛ ((لأن الاستكثار والجمع بين الحروف المتجانسة يوجب للكـــلام ضرباً من التنافر)) (٨)، كما أشار الزيدي إلى أن القليل من التجنيس يحـــسن في الكـــلام، والإكثار يسلب الكلام بهجته((مثله مثل الخال في الحسناء، في أنـــه يزيـــدها حـــسناً وإن كثرت الخيلان حتى يستوفي جسدها، أكسبتها الوحشة، وسلبتها البهجة)) (٩).

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١١ .

(٢) ينظر : البديع : ٣٦ .

(٣) سورة النمل : آية : ٤٤ .

(٤) سورة يونس : آية : ٢٦ .

(٥) سورة الروم : آية : ١٠ .

(٦) ينظر : الإيضاح : ٢ / ٥٥٨ ، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ٤٥١ ــ ٤٥٢ .

(٧) ينظر : البديع : ٣٦ ، والنكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) : ١٠٠ .

(٨) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٢ .

(٩) المصدر السابق : ١١٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ذكر الزيدي أمثلة من الشعر، بيَّن أن وقوع التنافر فيها كان نتيجة للإكثار من التجنيس، من ذلك قول الأعشى (١):

وقَدْ غَدَوتُ إلى الحَانُوتِ يَتْبَعُنِي شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ (٢)

ورغم قِصَر حديث الزيدي عن هذا الأسلوب، إلا أنه يشير إلى معرفته التامة بـــه، فقد ذكر اسمه وتعريفه، وأشار إلى صورة دقيقة من صوره، كما تطرَّق إلى قلته في القـــرآن وأشعار العرب، وأن هذه القلة هي سبب الحُسن والبهجة.

ب ـ الفاصلـــة :

تحدث الزيدي عن الفواصل، وأشار في بداية حديثه إلى كراهية بعـــض النـــاس(٣) تسميتها بالأسجاع إذا كانت في القرآن، و لم يَرغب ـــ كما ذَكر ـــ بالخوض في الخـــلاف حول هذه التسميات؛ لأن بيان المراد يُغني عن الاشتغال بها (٤)، وخلاصة الرأي في هذا أن منع مصطلح السجع على ما في القرآن، إنما هـــو لرعايـــة الأدب فقـــط؛ لأن الـــسجع في الأصل: هديل الحمام ونحوه (٥)؛ ولأنه قد شاع إطلاق مصطلح الـــسجع علـــى أقـــوال الكهان، و لم يَرد نصٌّ شرعي صريح يمنع من إطلاق السجع على ما في القرآن، أمـــا نهـــي النبي ﷺ عن السجع فهو مقيَّد بسجع الكهان، وليس مطلقا (٦).

---

(١) هو ميمون بن قيس ، من فحول شعراء الجاهلية ، وممن قُدِّم على سائرهم ، مـــات باليمامـــة. ينظـــر : خزانـــة الأدب: ١ / ١٨١ ـــ ١٨٢ .

(٢) البيت من (البسيط) ، ينظر : ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس : ٩٥ ، شرح وتعليـــق: د. محمـــد محمـــد حسين ، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٢ .

(٣) لعل الزيدي يشير إلى كراهية الرماني والباقلاني لهذه التسمية، ينظر : النكت في إعجاز القرآن، ضـــمن (ثـــلاث رسائل في إعجاز القرآن): ٩٧ ، وإعجاز القرآن : ٥٩ .

(٤) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٣ .

(٥) ينظر : لسان العرب : ٧ / ١٢٩ .

(٦) ينظر : الفاصلة في القرآن : محمد الحسناوي : ١١٣ ، دار عمار ، عمَّان ، ط ٢ ، ١٤٢١هـــ ، وعلم البـــديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع : د. بـــسيوني فيـــود : ٣٠٩ ، مؤســـسة المختـــار للنـــشر والتوزيع، القاهرة ، ودار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع ، الأحساء ، ط ٢ ، ١٤١٨هـــ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و لم يُصرح الزيدي بتعريفها كما فعل في فنون البديع الأخرى، بل اقتصر على بيان التسمية عند اتفاق الحروف أو اختلافها في أواخر الفواصل فقال: ((وهذه الفواصل تكون بحروف متفقة، وتسمى أسجاعاً، وتكون بحروف مختلفة، وتسمى موازنة)) (١)، ثم شرع الزيدي في عرض شواهد من القرآن الكريم على كل نوع، منها قولـه تعـالى:] & '

( ) * + , - Z (٢)، وقولـه تعـالى:] @ A B C D

E F G H I J K L M N O P Q R S T U

V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e

f g h i j k l m n Z (٣)، وقوله تعـالى:] ! " # $ %

& ' (Z (٤).

والملاحظ هنا أن الزيدي يجعل الموازنة نوعاً من أنـواع الأسـجاع الـتي سماهـا الفواصل، بينما المتأخرون كالخطيب ومن بعده يجعلون الموازنة نوعاً بديعياً خاصاً لا علاقـة له بالسجع ولا يشترك معه في أي صورة من صوره (٥).

كما يُلاحظ من خلال عرض أمثلة الزيدي للموازنة أنه لا يـشترط فيهـا اتفـاق الفاصلتين في الوزن كما يوجب ذلك المتأخرون، فقد عرفوا الموازنة بقولهم: ((أن تكـون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية)) (٦)، لكن الزيدي هنا يكتفـي بالإشـارة إلى وجوب اختلاف الحرف الأخير فيهما، فواضحٌ أنَّ (العالمين) و(الرحيم) مختلفتان في الـوزن، لكنني لاحظتُ أنَّ المثال الآخر الذي أورده بعد ذلك مباشرة اتفقـت فيـه الفواصـل في الوزن: (عملا، جرزا، عجبا، رشدا)، وأظن أن هذا الاتفـاق لم يأتِ به الزيدي قـصداً،

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٣ .

(٢) سورة الفاتحة : آية : ٢ ــ ٣ .

(٣) سورة الكهف : آية : ٧ ــ ١٠ .

(٤) سورة الإخلاص : آية : ١ ــ ٢ .

(٥) ينظر : الإيضاح : ٢ / ٥٦٨ .

(٦) المرجع السابق : ٢ / ٥٦٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأنه علق بعده بقوله: ((ألا ترى أن آخر الآية الأولى هو اللام، وآخر الثانية هي الـــزاي، وآخر الثالثة هو الباء، وآخر الرابعة هو الدال)) (١)، و لم يشر إلى الاتفاق في الوزن ألبتـــة، و لم يكن الزيدي سابقاً في عدم هذا الاشتراط، بل سبقه بعض العلماء الـــذين لم يـــشترطوا الاتفاق في الوزن كأبي هلال العسكري (٢)، وأنا هنا لا ألوم الزيدي ولا غيره في عدم هذا الاشتراط، لأن المصطلحات البلاغية لم تستقر على مفهوم واحد في ذلك الوقت.

ثم بين الزيدي في نهاية حديثه عن هذا القسم من أقسام الفصاحة أنـــه ((لاوجـــه لتعداد أمثاله في القرآن لكثرته، وتجاوز حدّ الإحصاء، ولأن شيئاً من السور لا يخلـــو مـــن ذلك)) (٣)، وأشار إلى أنه باب كبير من أبواب الفصاحة في القرآن، لوروده مـــع الحـــلاوة ورونق الطلاوة، بعيداً عن التكلف والتعسف الذي تنبو منه الأسماع وتمجه الأفهام، وأشـــار بعد ذلك إلى أنَّ هذا الفن مشهور عند العرب ولا يكاد يخلو منه كلام فصيح لديهم.

وأشعر أن إشارة الزيدي الأخيرة تأتي إحساساً منه بأهمية هذا الفـــن، فقـــد امـــتلأ القرآن الكريم بروائعه، وهو يتميَّز بجرسه الجميل؛ وخاصة في سوره المكيـــة؛ ولهـــذا فـــلا عجب أن يفطن الزيدي إلى أنه لا تكاد تخلو سورةٌ من سور القرآن إلا وفيها صـــورٌ مـــن هذا الفنِّ البلاغيِّ الذي جاء في نظمٍ بديع.

---

(١) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٣ .

(٢) ينظر : كتاب الصناعتين : ٢٦٣ .

(٣) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١١٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ج ـ الاقتباس :

أشار الزيدي إلى الاقتباس في نهاية حديثه عن أقسام الفصاحة، وبين أنه من الأمور التي تبين بلوغ القرآن غاية الفصاحة، وذكر في تعريفه: ((أنَّ الشاعر ربما ضَمَّن لفظة من القرآن بيتاً من الشعر، أو حشا الخطيب بها فصلاً من الخطب، أو وشَّح الكاتب بها موضعاً من الرسالة، فيتميز بحسنها عن غيرها، ويتبين ببهجتها على ما سواها، ويصير الموضع الذي يضمنها غُرَّة من سائره، بحسنه الذي اكتسبه من تلك اللفظة، وزبرجه الذي استعاره منها)) (١)، ثم بعد ذلك مباشرة نرى الزيدي يدلل على بلاغة القرآن وعلوه في الفصاحة من خلال هذا الفن بقوله: ((ومما يبين ذلك: أن كثيراً من الفصحاء وُجد في كلامهم كلمات فصيحة رائعة، صارت لبلاغتها أمثالاً سائرة، ووجد معناها في القرآن، إلا أنك إذا تأملتها وجدت [التفاوت] (٢) بينها كبيراً، وظهر لك فضل ألفاظ القرآن على تلك الألفاظ ظهوراً تاما)) (٣)، ثم بدأ الزيدي يعرض مجموعة من الأمثلة التي توضح البلاغة الفائقة التي اختص بها القرآن الكريم، وكيف أنَّ الفصحاء والبلغاء استفادوا كثيراً من الذكر الحكيم في توشيح كلامهم سواء أكان شعراً أو خطبةً أو رسالة، ومن هذه الأمثلة: ثلاث كلمات ذكرها عن علي بن أبي طالب ﷺ، ((أحدها: "من جهل شيئاً عاداه"، ومثله قول الله عز وجل:] وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾ Z(٤) وقوله:] µ ¶ ¸ لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ Z(٥)، والثانية:"أَبْغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما"، وفي قريب من معناه قوله عز وجل:] 7 8 9 : ; < = > ? @ Z(٦)، والثالثة:"المرء مخبوء تحت لسانه"، وفي قريب من معناه قوله عز وجل:

---

(١) المصدر السابق : ١٢٠ .

(٢) جاء في الأصل [التفاهم]، ولا وجه لها، وأحسب أن الأقرب كونها (التفاوت)؛ لأن المعنى يدل عليها، ولمجيئها بعد ذلك في ذات السياق.

(٣) المصدر السابق : ١٢٠ .

(٤) سورة الأحقاف : آية : ١١ .

(٥) سورة يونس : آية : ٣٩ .

(٦) سورة الممتحنة : آية : ٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[') (* Z (١)، فتأمل التفاوت الذي بين تلك الكلمات الثلاث، وبين ألفاظ الآيات التي ذكرناها، تبين لك صحة ما ادعيناه)) (٢)، كما ذكر قول النابغة الذبياني:

فإنَّكَ كاللَّيلِ الذي هو مُدْرِكي وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتأى عَنكَ واسِعُ

يقول الزيدي: ((فانظر أين يقع ذلك من قوله عز وجل: [K L M Z N (٣)، ومن قوله: [c d e f g h Z (٤))) (٥)، كما يذكر الزيدي أن من الكلام الفصيح قول حسان بن ثابت:

بَكَتْ عَيْنِي وحُقَّ لها بُكَاها وما يُغْنِي البُكَاءُ ولا العَوِيلُ (٦)

يقول الزيدي: ((لكن أين يقع ذلك من قول الله عز وجل حاكياً عن أهل النار: [R S T U V W X Y Z [Z (٧))) (٨).

ولي عدة وقفات حول تناول الزيدي لهذا الموضوع:

الأولى: لم يصرح الزيدي بمصطلح الاقتباس رغم أنه ذكر مفهومه، بل إنه لم يذكر حتى مادة المصطلح، بخلاف ما لاحظناه في الفنون السابقة، وربما كان سبب ذلك أن الاقتباس لم يتبلور له مصطلح خاص متداول عند البلاغيين كما حصل بعد ذلك، ولا غرو في هذا؛ فقد كانت البلاغة تمر بمرحلة النشأة والتكوين، وهي بلا شك مرحلةٌ مبكرةٌ لم تتحدد فيها كثير من المصطلحات التي صارت معروفة عند المتأخرين بشكل واضح، ونرى

---

(١) سورة محمد : آية : ٣٠ .

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٢٠ ــ ١٢١ .

(٣) سورة البقرة : آية : ١٩ .

(٤) سورة الأنعام : آية : ١٣ .

(٥) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٢١ .

(٦) البيت من (الوافر) ، ينظر : ديوان حسان بن ثابت : ١ / ٥٠٤ ، تحقيق : د. وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤ م.

(٧) سورة إبراهيم : آية : ٢١ .

(٨) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٢٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الزيدي يكتفي بلفظة (ضمَّن) التي تحولت فيما بعد إلى فن محدد هو (التضمين)، وهو عند المتأخرين خاصٌّ بأخذ الشاعر من شعر غيره مع الإشارة إليه إن لم يكن معروفا (١)، ولا علاقة لديهم بين التضمين والقرآن.

الثانية: الاقتباس بمفهومه المعروف عند المتأخرين ليس خاصاً بالأخذ من القرآن الكريم، بل يتجاوز ذلك إلى الأخذ من الحديث النبوي الشريف (٢)، لكن الزيدي اكتفى في مفهوم الاقتباس بأنه الأخذ من القرآن فحسب؛ وذلك لأن الاقتباس لم يستقر على مفهوم محدد كما ذكرت آنفاً، إضافةً إلى أنَّ حديث الزيدي في هذا السياق كان لإثبات بلاغة القرآن الكريم، وبلوغه الغاية في الفصاحة، وأنه صار بذلك من دلائل النبوة، ولذلك لم يكن لذكر الأخذ من الحديث النبوي مكان هنا.

الثالثة: شعرتُ ــ أثناء تأملي لحديث الزيدي عن الاقتباس ــ أنه حصل لديه ازدواجية في فهم هذا الفن، فقد أراد أن يتحدث عن فن واحد، لكنه ذكر مفهومين له، الأول: أشار فيه إلى الاقتباس الذي ذكره المتأخرون ونعرفه اليوم، وذلك حينما ذكر أن الشاعر أو الخطيب ربما أخذ لفظة من القرآن ووضعها في بيته أو خطبته، الثاني: أشار فيه إلى نوع آخر من الاقتباس أستطيع أن أسميه اقتباسا معنويا، وذلك حينما ذكر أنه ربما يوجد في كلام الفصحاء كلمات رائعة وبليغة وُجد معناها في القرآن.

و قد كان من الممكن ألا أسمي ما وقع فيه الزيدي ازدواجية، وأن أعتذر له بأنه أراد أن يذكر نوعين للاقتباس: لفظي ومعنوي، كان من الممكن أن أفعل ذلك لولا أمران اثنان جعلاني أشعر بهذه الازدواجية؛ أولاً: أنه لم يصرح بأنه سيذكر نوعين للاقتباس، فقد كان الكلام متصلاً والسياق متسقاً، بل إنه دَلَّل للمفهوم الأول بالمفهوم الثاني، وهذا دليل على أنه لم ينتبه إلى أنهما مفهومان مختلفان، ثانياً: أنَّ جميع الأمثلة التي أوردها كانت شواهد واضحة على المفهوم الثاني وهو الاقتباس المعنوي، و لم يتعرض لشاهد واحد

(١) ينظر : الإيضاح : ٢ / ٥٩٤ ، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ٣٧٢ .
(٢) ينظر : الإيضاح : ٢ / ٥٩٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للمفهوم الأول وهو الاقتباس اللفظي، وهذا يدل على أنه كان يتحدث ـــ أو بالأصح يَظنُّ أنه يتحدث ـــ عن مفهوم واحد وفنٍّ منفرد.

الرابعة: أجاد الزيدي في عرض أمثلته من هذا النوع، وأبدع بواسطة استثمار هـــذا الفن في تحقيق هدفه الأسمى وغرضه الأعلى، وهو بيان إعجاز القرآن الكريم، والتدليل على وصوله الغاية في الفصاحة والبلاغة، فقد ذكر أمثلة من كلام السابقين وقارنها بمـــا ورد في القرآن الكريم مما يوافق معناها أو يشابهه، وأظهر التفاوت الكبير بينها لفظـــا ومعـــنى، ممـــا يجعل المتأمل يقطع بتفوق القرآن الكريم على ما سواه.

الخامسة: لحظتُ ـــ في الأمثلـــة التي أوردهـــا الزيدي لكلام بعض الفـــصحاء ـــ تنوعاً بين الشعر والنثر، كما لاحظتُ أن هؤلاء الفصحاء الذين استشهد الزيدي بكلامهـــم منهم من اطلع على القرآن واستفاد من معانيه، كعلي بن أبي طالب، ومنهم مـــن لم يطلـــع عليه كالنابغـــة الذبياني (١)، وقد كان الزيدي دقيقاً حينما ذكر المفهوم الثـــاني للاقتبـــاس وقال: ((أن كثيراً من الفصحاء وُجد في كلامهم كلمات فصيحة رائعة، صارت لبلاغتـــها أمثالاً سائرة، ووُجد معناها في القرآن)) (٢)، أي أنه لـــيس شـــرطاً أن يكـــون الفـــصيح المستشهد بكلامه قد أخذ من القرآن أو استفاد منه، بل يكفي أن يُوجد معناه في القـــرآن؛ لأنَّ الغرض هنا هو الموازنة بين ما جاء في كلام هؤلاء، وما جاء في القرآن الكريم والمقارنة بينهما وبالتالي إظهار التفاوت، ولذلك كان الزيدي سيقع في إشكال لو اكتفـــى بـــالمفهوم الأول للاقتباس –وهو اللفظي- وجعل مثال النابغة منه؛ لأن النابغة شاعر جاهلي لم يطلـــع على القرآن حتى نقول بأنه أخذ لفظة منه أو استفاد من بعض معانيه.

ومن خلال تأملي لحديث علماء كتب دلائل النبوة لفنون البديع والتحسين وتنـــاولهم لها، أستطيع أن أسجل في هذا الصدد عدداً من الملحوظات:

١- كما أشرتُ في بداية هذا المبحث فلم يتعرض للحديث عن فنون البـــديع ســـوى عالمين اثنين من علماء كتب دلائل النبوة، هما ابن قتيبة والزيدي، وكان للأخـــير النـــصيب

---

(١) ينظر : إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٢٠ ـــ ١٢١ .

(٢) إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم : ١٢٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأوفر من هذا الحديث، حيث تحدث عن أكثر من فنّ، فأشار إلى الطباق والجناس، كما عرض للسجع والموازنة والاقتباس، أما ابن قتيبة فقد انحصر حديثه في التورية فحسب.

٢- تباين حديث هذين العالمين عن فنون البديع من حيث التفصيل وعدمه، فبينما نرى ابن قتيبة يفصل في كلامه عن التورية وشواهدها، نجد أن الزيدي يكتفي بالإشارة إلى بعض الفنون مع عرض أمثلة وشواهد دون وقوف طويل.

٣- يبدو أنَّ اقتصارهم على هذه الفنون فقط؛ لأنها هي الأشهر والأعرف عند البلاغيين، ولذلك رأينا فيما بعد أن هذه الفنون تتصدر علم البديع بقسميه عند المتأخرين.

٤- لاحظت أن الزيدي يشدد في أكثر من موضع على عدم التكلف، وأن الإكثار من هذه الفنون في الكلام يفسده ويذهب برونقه، وكأنه كان يستشرف المستقبل ويعلم أنه سيأتي زمان يكون البديع فيه للمباهاة والزخرفة؛ لأنَّ أصحابه أساؤوا استخدامه.

٥- أجاد كُلٌّ من الزيدي وابن قتيبة في عرض هذه الفنون واستثمار شواهدها في التدليل على بلاغة القرآن الفائقة، وإظهار إعجازه الباهر، وهو من الأهداف الرئيسة من بحث هذه الألوان في كتبهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com